مرايا البيت العتيق

سحر محمد الصياد

باقي
للنشر والتوزيع

المدير العام / أسماء محمد نافع
مدير النشر / محمد عبدالرازق

رواية: مرايا البيت العتيق

تأليف: سحر محمد الصياد

مراجعة لغوية: عبد الرحمن شريف

التنسيق الداخلي: صبرينة غلمي

تصميم الغلاف: أحمد الصباغ

رقم الإيداع: 7447

تدمك:978-977-85484-3-3

جميع حقوق محفوظة ©
لا يجوز، دون الحصول على إذن خطي من الناشر،
استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا المصنف، أو استنساخها
أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة
إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام
أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها

All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any electronic or mechanical means, including information storge and retrieval systems, without permission in writing from the publisher,except by reviewers, who may quote brief passages in a review

((أمَا رَأيْتَنِي؟ قدْ كنتُ أمَامَك في المرْآةِ))*

....
* الكاتبُ :رِضَا إِمام .. من مجْموعتِهِ القصصية :همزةُ وصلٍ.. همزةُ قطْعٍ

(١)

مِرْآةٌ أُولَى

تعلّقتُ بِمرْفَقِهِ فرِحَةً، وفخورةً.

- لاَ تُمسكي بيدِي، وظهرَ الضيقُ على وجهِهِ، كتمتُ حسرتِي في نفسي، وسرتُ بجوارِهِ أسترجِعُ الذّكْرى يومَ أنْ أحنيْتُ قامَتِي؛ لأُمْسكَ يدَهُ الصّغيرةَ بيدِي؛ وَأمشىَ خطواتي ببطءٍ؛ لتُلائِمَ خطوتَهُ، وهو يسيرُ لأوّلِ مرةٍ في الشارعِ.

مشِيتُ خطواتٍ متعثرةً، وانحنيتْ أكثرَ؛ لأُقبلَ يدَهُ.

بعدَ قليلٍ خفْتُ عليهِ أنْ تؤلِمَهُ قدمُه ؛ فحملتُه بينَ ذراعِي؛ لأغمُرَهُ بحضنِي وقبلاتِي فرحةً بأُولى خطواتِ ابني الصغيرِ.

و الآنَ ضاقَ بي أنْ أُمسكَ يدَه ؛لأستندَ عليها بعدما كبُر وكبُرتُ!!

لاحظتُ- من فترةٍ- أنّه يضيقُ بي، وبسيْري معَهُ. هلْ هناكِ عيبٌ في مظهَرِي؟ هلْ يخجلُ من أمِّهِ؟

لا. الحمدُ للهِ مظهرِي يشرفُ، وصحتِي قويةٌ.

اااه! وماذا سيفعلُ إنْ أحْنَى الزمانُ ظهري وضعُفتْ قوّتِي؟؟وعجزتُ عنِ السيرِ؟

ماذَا سيفعلُ عندما أعجِزُ عن ترتيبِ ملابسي ومظهري؟ ماذَا سيفعلُ عندمَا أحتاجُ يدُه لتحملَنِي وتسندَني؟؟

تذكرتُ قولَ أُمِّي رحمها الله : "يا رب! لا تثقل بنا على أحد ولا تحوجنا لأحد".

إنه غافلٌ، لا يدرى ما يفعلُه بقلبِي بقولٍ أو إيماءةٍ أو فعلٍ ..أبتلعُ غصّاتِي في ألمٍ، و يعتصرُ قلبِي، وتسودُّ الدنيا في عيني، وأحبسُ دموعَ خيبةِ الأملِ. ألَا يرحمُ قلبِي عسى اللهُ أنْ يرحمَه كمَا يرحمُني؟

وتخيّلْتُ مرورَ الأيامِ، عندمَا يكبرُ الصغيرُ، وينكِّس اللهُ الكبيرَ؛ ليعودَ صغيرًا في قوتِه و احتياجاتِه.

ماذا سيفعلُ إنِ ارْتعشتْ يدِي وأنا أتناولُ طعامي؟ هل سيقَبِّلُ وجنَتي التي تلوثتْ بالطعامِ، ويقولُ :الله! حلوة.

كمَا كنتُ أفعلُ معهُ في صغرِهِ؟ هلْ سيُزِيلُ ما علَقَ على ملابسي وهو مبتسم أم سيتضجرُ ويتأففُ؟ و يستعجلُ الوقتَ الذي يجلسُه معِي، ويحمدُ اللهَ عندَ مضيِّهِ ..ويتنفسُ الصعداءَ أنّه قدْ قامِ بواجبِه الثقيلِ نحوِي، ويهربُ من وجهِي، وآلامي واحتياجَاتِي الصغيرةِ؟

****

(٢)

تلاشتِ الذّكْرَى، وتبددتِ الأفكارُ، وأفقْتُ على الواقعِ.

تنهدتُّ تنهيدةً حارةً وأنا أتأملُ غرفتِي، ونورُ الشمسِ يفترشُها، لكمْ قدْ أحببْتُ سطوعَ الشمسِ، وضوءها الغيرَ مباشرِ الذِي يتخللُ الستائرَ الشفافةَ.

وهذا الكرسيُّ الهزازُ، كمْ تمنيتُه طويلاً، وحصلْتُ عليهِ، يهدهدُني وأنا أُطالعُ كُتبِي ويهَدْهِدُ أفكارِي، ولكنِّي تمنيتُه وتخيلتُهُ في صورةٍ مليئةٍ بالدفءِ، والطمأنينةِ والأُلفةِ.
أأُحسُّ الوحشةَ الباردةَ في هذا المكانِ الدافئ المشمسِ؟ لمَ؟
"الجنةُ بدونِ ناسٍ......" هكذا قالُوا قديماً.
لكنَّ حولي الناسَ في كلِّ مكانٍ، وها أنا أسمعُ همهماتٍ وضحكاتٍ متقطعةٍ تأتيني عبرَ بابِي النصفِ مفتوحٍ، وصوتُ خريرِ ماءٍ يأتينِي منَ النافذةِ المطلةِ على الحديقةِ ؛إنها "أمُ حسنى" تروي الحديقةَ والأزهارَ.
ضحكاتٌ، وصوتُ المذياعِ من بعيدٍ يأتي بنشرةِ الأخبارِ، وَأصواتُ حركةٍ هُنا وهناكَ.
تأخرتُ كثيراً اليومَ في الخروجِ منْ غرفَتِي.

يطِلُّ عليَّ بينَ الحينِ والآخرِ وجهاً ضاحكاً يتمنى لي صباحَ خيرٍ.
لكنَّها تحياتٌ، وضحكاتُ أناسٍ غيرِ منْ تمنيتُ أنْ يرتويَ قلبي، وعيني برؤيةِ وجوهِهم، وأصواتِ ضحكاتِهم.
أغمضتُّ عيني، وسرحتُ على هدْهدَاتِ كرسيّ الهزازِ.
ماذا يفعلونَ الآنَ؟
نزلتْ برودةٌ موحشةٌ في قلبي، ألا أعرفُ؟ أهكذا باعدتْ بيننا الأيامُ؟ حتى أصبحتُ غريبةً لا أعرفُ ماذا يفعلُ حباتُ قلبي؟
أتى يومٌ لا تنظرُهمْ عينِي فيهِ، لقدْ كنتُ أستشفُ ما بِهِمْ بمجردِ أنْ أُطالعَ وجوهَهم، وأرى ما يسكنُ أعماقَهم من مشاعر.
لقد أتى يومٌ لا أتصبَّح بقبلةٍ على خدِي، ولا أضمُهم إلى قلبي، وصدري؛ لأطمئنَهم بهذا الحضنِ؛ وأطمئنَ-كذلكَ- نفسي.
- صباحُ الخيرِ.
أفقْتُ على صوتِ مسؤُولةِ المطبخِ -أم أدهم- التي تدخلُ بجسدِها الممتلئِ، تحملُ صينيةَ الطعامِ المُغطاةَ.
- صباحُ النورِ....لا رغبةَ لي في أيّ شيءٍ الآنَ.
- لا .. تناولي إفطارَك..عجِبتُ عندما أَرْجَعَهُ لي الخدمُ في المطبخِ، وقالُوا إنكِ لم تكوني في غرفةِ الطعامِ اليومَ ؛ فأتيتُ لكِ بهِ.
البيْضُ كما تحبينَ، وكوبُ الماءِ بالعسلِ، وكسرة الخبز، أعرفُ أنكِ حريصةٌ على رشاقتِكِ، وعلى نظامِك.

سرح فكري:

ما هكذا تمنيتُ إفطاري..نعم.. كم أفطرتُ وحيدةً، ولكنِّي كنتُ أعرفُ أينَ كلُّ واحدٍ منْ أحبابي، وماذا يفعلُ كلُّ منهمْ، هذا نائمٌ..هذهِ في المدرسةِ، وتلك، وتلك.

(٣)

لكنْ! أينَ أنا الآنَ؟ وأينَ هم؟؟

أنا بدارِ المسنينَ..لا..اسمُها دارُ السعادةِ! .. أيُّ سعادةٍ؟
أفقْتُ على حملقةِ أمِّ أدهمَ بي ..أخذتُ منها صينيةَ الطعامِ.
كانت تتأملُ وجهي بفضولٍ، وسألتني:
- ما بكِ؟ ألنْ تحكيَ لِي؟
- لاشيءَ..عادى..كسلٌ.
ومددتُّ يدي ؛لأتناولَ الماءَ بالعسلِ قبلَ أنْ يبرُدَ، وتأملتُ يدِي المعروقةَ، وقدْ ارتسمتْ عليها أحافيرُ الزمنِ.
انتظرتُ قليلاً متحمِّلةً نظراتِ الحيرةِ، والاستفهامِ من أمِّ أدهمَ، وقاومتُ الردَّ، ثم تناولتُ البيضةَ والخبزَ.
لم تتَحملْ أمُّ أَدهمَ الصمتَ:
- لا أعرفُ كيف تكتفينَ بهذا فقط كإفطارٍ؟ إن لم أتناولْ رَغيفيْنِ، وطبقاً ممتلئاً بالفولِ، وجُبناً، وخلافَهُ، فلنْ أستطيعَ أنْ أقفَ على قدمي .
- تعودتُ -من سنين- أنَّهُ نظامٌ صحيٌّ، آكُلُ كمَا أريدُ، ولكن بكمياتٍ قليلةٍ للغايةِ..هذا أفضلُ.

- خـذي الـدواءَ؛ إنـهُ-حقـاً- نظـامٌ صـحِّيٌّ ؛ فـدوائُكِ فيتامينـاتٌ فقـطْ. الحمدُ للهِ ليسَ لديكِ أيّ أمراضٍ.
لكنَّ الحقيقةَ أني لا أستطيعُ أن أتَّبعَ نظامَكِ، إنه صعبٌ، أنا لا أقومُ مِن على الطعـامِ إلا وقـدْ امـتلأتْ معـدَتِي حتى آخـذَ أَنفاسِـي بصـعوبةٍ بالغةٍ..ههههههه

- الحمدُ للهِ.
- هيه؟؟ ألـنْ تخرجي للحديقةِ لتُصبحي على ورداتِك؟؟ هل ستأتي الصغيراتُ اليومَ؟
- نعم.وستأتي الصغيراتُ.
- لا تريـدينَ أن تتحـدثي؟ أعرفُـكِ جيـداً، إنّها عِشـرةٌ، كلامُكِ قليلٌ ورُغـمَ ذلـكَ يـأتي لـكِ الجميعُ ليتحـدثُّوا معـكِ، ويفضفضـوا لـكِ ورُغـمَ قلـةِ كلامِـك يرتـاحُ معـكِ الجميـعُ ويرتـاحون لتفهُّمـكِ. تنبهتُ أنّ جدولي اليوميَّ حافلٌ، و تأَخُّرُ ساعةٍ قدْ يعطِّلُ ويؤخِّرُ مهامَ كثيرةً.

((الطريقـةُ الوحيـدةُ لتجنُّـبِ التَّعاسـةِ هيَ ألَّا يكـونَ لـديكَ وقـتُ فـراغٍ ؛ لتسألَ فيهِ نفسَكِ فيمَا إذَا كنتَ سعيدًا أم لا؟)) .
هكذا قال:"جورج برنارد شو".

(٤)

خرجتْ أمُّ أدهمَ، وقمتُ متأملةً غرفتِي؛ فدائمًا ما أرتِّبها بنفسي، ولا أحبُّ أنْ تمتدَ يدٌ إلى أشيائِي، الحمدُ للهِ على نعمةِ الصحةِ.

رتبتُ كُتبِي علَى المنضدةِ القريبةِ من الفراشِ، وأخذتُ ما أَنهيتُ قراءتَه؛ لأضعَه في المكتبةِ.

لا بُدَّ منْ رَيِّ هذهِ النبتةِ الحبيبةِ.

همستُ لها : صباحُ الخيرِ، بعدَ قليلٍ أُعطيكِ ما يتبقَّى في فنجانِ قهوتي.

نظرتُ لغرفتِي بأَلوانِها الهادئةِ المبهجةِ.. كلُّ شيءٍ هنا صنعَتْه يدي ورتَّبَتْهُ.. الستائرُ المطرزةُ.. مفرَشُ السريرِ بأزهارِه المنمنمةِ، ومكتبتِي الحبيبةُ تحوطُني رفوفُها، وتحتضِنُنِي في ثلاثِ حوائطَ، لقد شعُرْتُ بالفخرِ بها، وبمحتوياتِها، ليتَنِي أستطيعُ جلبَ باقِي كُتبي هُنا، ولكنَّ المكانَ لا يتسعُ، سأطمئِنُّ على باقِي كُتبِي التي أودعتُها في غرفةِ مكتبةِ الدارِ لاحقًا.

أزحتُ الستائرَ عن النافذةِ العريضةِ؛ لأسمحَ للشمسِ بافتراشِ كاملِ الغرفةِ، ووقفتُ أتأملُ الحديقةَ، وأملأُ صدرِي بالنسيمِ الممتزجِ برائحةِ الزرعِ والورودِ.أخذَني الحنينُ لتفقُّدِ نباتاتِي الصغيرةِ.

انعطفتُ لآخذ جهازَ الهاتفِ اللوحيِّ، صديقي، ورفيقِ يومي.

توجهتُ لبابِ الغرفةِ، ثم استدرْتُ؛ لأُلقىَ نظرةً نهائيةً متمِّمَةً

- كلُّ شيءٍ نظيفٌ، ومرتَّبٌ، كمْ هي منعشةٌ هذهِ الغرفة!

(٥)

خرجتُ من غرفتِي التي تتميزُ بموقعِها المتوسطِ للحجراتِ العديدةِ التي تضُمُّها الدارُ.

في هذا البيتِ الفخمِ العتيقِ قد تعددتِ الوجوهُ، والحكاياتُ؛ فكلُّ إنسانٍ – هنا - هوَ أُنموذجٌ أو مرآةٌ لأشخاصٍ عدةٍ في المجتمعِ خارجَ هذا القصرِ الفارهِ كدنيانا هذه، وتتعددُ الأدوارُ لكلِّ شخصٍ، وتُقْتَسَم الحظوظُ، فيأخذُ كلٌّ منَّا حصتَه من سعادةٍ وشقاءٍ.

تكونُ - أحياناً- الحصةُ كبيرةٌ من تلكَ، أو ذاكَ؛ فتتنافسُ على الإنسانِ سعادتُه، وشقائُه، وتكونُ الغلبةُ لما نسميهِ النصيبَ، أوِ الحظَّ في الدنيا.

كمْ مرَّ علَى هذا البيتِ من وجوهٍ، وأحداثٍ حتَّى غلبَه مرورُ الزمنِ، أوْ تغلَّبَ عليهِ.

فكان قصراً مزدهراً، ثمَّ هجرَ، وذبُلَ رواؤُهُ، وها هوَ- بعد تقلبات عدة - مأوًى لقلوبٍ تتقلبُ ما بينَ انكساراتٍ، وانتصاراتٍ أصابتْها خارجهُ، ومحاولتُها لجبرِ الكسرِ بداخلهِ.

هناكَ منْ نجحَ، وعادَ صحيحَ النفسِ، والبدنِ، وهناكَ منْ ظلَّ - فقط - يتأمل هذا الانكسارَ، يذرِفُ الدمعَ مستسلماً عاجزاً، وهناكَ منْ هوَ بينهُما كسرُه لا يُجبَرُ، ولا يحققُ انتصاراتٍ تُذكرُ.

ودخلتُ مطعمَ الدارِ كعادتي اليوميةِ على أنْ أجدَ إحْدى صديقاتي به، ولكنْ وجدتُّهُ خالياً، فحدثْتُ نفسِي:

- فارغٌ؟

كمْ أخذتْنِي أفكارِي، وذكرياتِي حتى مضى الوقتُ.

غرفةُ الطعامِ الحميمةُ تلكَ كأنَّها في بيتٍ عاديّ، ولكنها بمساحةٍ أكبرَ؛ لتتسعَ للجميعِ. طاولةٌ بمفرشٍ بديعٍ، مزهريةٌ بها ورودٌ يانعةٌ، وكراسيٌّ مريحةٌ لينةٌ حتى لا تؤلمَ عظامَنا الواهنةَ..

سمعتُ أصواتاً آتيةً منَ الغرفةِ المجاورةِ..غرفةِ الجلوسِ

تلكَ الغرفةُ هادئةٌ بأثاثِها البسيطِ الرفيعِ الذوقِ رُغمَ صخبِهم، وصخبِ المذياعِ، والتلفازِ في ركنهِ البعيدِ قليلاً.

وما أنْ ظهرَ وجهِي من فتحةِ البابِ حتى تناثرَتِ الاستفساراتُ.

- صباحُ الخيرِ؟ أينَ أنتَ؟. معقولٌ! كسولةٌ اليومَ كمَا قالُوا؟ مستحيلٌ! أنتِ أنشطُ منْ في الدارِ.

- ما بكِ؟ قالتْها عينُ صديقتِي المقربةِ "عبير" وهيَ تقتربُ مني مستندةً على عكازِها، وتبعتْها بلسانِها.

- أبدًا..

قلتُها محاولةً أن أهربَ بعيني عن عينيْهَا؛ كيْ لا تطفرَ مني الدموعُ:

- بعضَ الأفكارِ، والذكرياتِ، والأولادِ. أنتِ تعرفينَ .

(٦)

- آه. عرفتُ من عينِك المنتفخةِ، لا فائدةَ من التفكيرَ والنّبشِ في الماضي، هي أيامٌ و نعيشُها، الحمدُ للّهِ

- الحمدُ لله

- سأخرجُ؛ لأتفقدَ مزروعاتَي .

- سلمِي لِي عليْها..هههه..ألمْ تنضجْ المانجُو بعدُ؟

- لا. تساقطتْ بعضُ الثمراتِ الفجَّةِ، لكنَّها لمْ تنضُجْ بعدُ، ولمْ تظهرْ حلاوةُ الطعمِ والرائحةِ عليْها.

خرجتُ، و قابلتُ في الممرّ "مدام حسناء" وهي تتساندُ على عكازِها، وتتحركُ بصعوبةٍ بمساعدةِ الممرضةِ

مدام حسناءُ أصغرُ منّي- في الحقيقة- بسبعِ سنواتٍ، ولكنَّ من يرانا، يظنُّ أنني الأصغرُ.

بادرتُها:

- صباحُ الخيرِ، ما حالُ حفيدِك؟؟

- الحمدُ لله، الدكتورُ وضعَ قدمَه بالجبسِ، ومنعَهُ من الحركةِ تماماً، وهوَ يتصلُ بي باكيًا : أريدُ الخروجَ يا تيتا! تعالي خذيِني، وضحكتُ في نفسي

وقلتُ : وهلْ تيتا قادرةٌ على الحركةِ وحدَها؟ أُحسُّ بهِ، وبضيقِه، وهوَ في الحادية عشرَ من عُمرهِ.

محبوسٌ في الجبسِ، وممنوعٌ من الحركةِ، واللعبِ، وسيظلُّ هكذا شهراً كما أخبرَهُ الطبيبُ.

لقد كانَ فرِحاً في البدايةِ؛ لأخذِهِ عطلةٍ لمدةِ أسبوعٍ من المدرسةِ، و لكنَّه حزِنَ عندما حُرِمَ منَ الخروجِ للنادي، ومرافقةِ أصحابِهِ، يذهب إليه أصحابُه بعد المدرسةِ، ولديْهِ الكثيرُ من ألعابِهِ الإلكترونيةِ، لكنْ يثْقُلُ عليهِ الامْتناعُ عنِ الحركةِ، تعرفين؟كمْ هوِ شقيٌّ وكثيرُ الحركةِ!أُحسُّ بضيقهِ..............

شعُرْتُ أنَّ الكلامَ لن ينتهِ.

هكذا "مدام حسناء" إنْ فتحتْ موضوعاً من الصعبِ أنْ تُغلقَ فمَها، وأسرعتُ أُقاطعُها بلطفٍ:

- ربنا يتمم شفاه على خير .. أستأذن.

الممرُ طويلٌ، و سأقابلُ الكثيرينَ حتى أخرجَ لحديقتي .

نثرتُ صباحَ الخيرِ في طريقِي، وكلماتٍ قليلةً خفيفةً حتى يأتيَ وقتُ تجمُّعِنا جميعًا فأطمئنَّ عليْهِمْ أكثرَ.

سلاماتٌ هنا، وابتساماتٌ هناك، هي صدقاتٌ ألملمُها صباحَ كلِّ يومٍ، وكمْ يحتاجُ قلبي لتلكَ الصدقاتِ منِّي، ولي.

(٧)

القلوبُ الطيبةُ لا تصلُحُ أن تعيشَ وحيدةَ، ستشعُرُ بالوحشةِ، والغربةِ، وتتوجعُ.

لا بدَّ أنْ تتَجمَّعَ لتطمئِنَّ، وتزيلَ الخوفَ عنها ؛ ولتشعرَ أنَّ الدنيا بخيرٍ رُغم أن الظاهرَ يبدو غيرَ ذلك؛ لذلِكَ كنتُ أجمعُ الناسَ حولي .

أنا العصبيةُ النفورةُ الانطوائيةُ، أجمعُ حوليَ القلوبَ؛ لأُواجهَ بهمْ خوفي، و وحشتي، و توجُّعِي.

أذكرُ يوم أن خرجتُ من وحدتي، واكتفائي بكتبي، وأوراقي.، وحدتِي التي اخترتُها في بدايةِ إقامتي في الدارِ.

لقد خرجتُ منها عندما وقعتْ عيني - أول مرةٍ - على فاطمةَ، أوْ كمَا تحبُّ أن نناديَها "بطة" هذا الجسدُ الضخمُ المترهِلُ الذي يحملُ على سريرٍ نقالٍ؛ لضاخمتهِ، وعجزهِ عن الحركةِ، ورُغمَ ذلكَ ضحكتُها تنيرُ وجهَها، و الدنيا حولها، لها وجهٌ طفوليٌ باسمٌ، و عيونٌ مرحةٌ، لا تملكُ إلاَّ أنْ تسلمَه قلبَك.

لقدْ كانتْ طفلةً مرِحةً محتبسةً في ثوبِ عجوزٍ سمينةٍ عاجزةٍ، وُضعتْ في قسمِ غيرِ القادرينَ على خدمةِ أنفسِهِنَّ، ولمْ يكفْ هاتُفها المحمولُ أبداً عنِ الرنينِ بتلكَ الأنغامِ المرحةِ مثلِها، ولمْ تفرُغ غرفتُها من الزوآر إلا

قليلاً، أولادِها، أهلِها، ساكني الدارِ، ورُغمَ ذلكَ كنتُ أطالعُ في عينيْها الضاحكتيْنِ شذراتٍ من حزنٍ تحاولُ دفنَهُ بضحكاتِها، ومزاحِها، و صخبِها الحلوِ.

انجذبْتُ لهَا، محاوِلةً أن أُخرجَ الطفلةَ من هذا الجسدِ الضخمِ الذي يكبِّلُها، ويعجِزُها، ويتسببُ في مأساتِها.

اقتربتُ منها بدافعٍ إنسانيٍّ؛ لأُحاولَ أن أُنقذَ حياتَها من سمنتِها، كانتْ كقطعةِ مغناطيس جذبتْني منَ انطوائِي، ووحدتِي، وأُسرتني بقلبِها الجميلِ، و حبِّها المُغْدِقِ، وأصبحَ كلَّ همي أن أخرجَها من أسرِها، وأُنقذَ حياتَها من أمراضِ السمنةِ، بل أنْ أُخرجَ تلكَ الطفلةَ الحبيسةَ في هذهِ الشحوم، أصبحتْ أسيرةً لها كأنَّها طفلتِي التِي رُزِقْتُ بهَا علي كِبَرِي، وَأَصبحتْ حياتُها و حمايُتها هي هدفُ أيامِيَ المقبلةِ

(٨)

" بطـة " نشـأَتْ في بيـتٍ عـاديّ، وكانـتْ مميزةً بالجمـالِ البـاهرِ، خطفَهـا زوجُها قبلَ أن تُكمِلَ تعليمَها، وفرِحتْ بحياتِها الجديدةِ، ناسيةً التعليمَ، والطموحـاتِ الكبيرةَ، و ظلَّ حبلُ الـودِّ بينَهـا و بينَ أهلِها، تزورُهم في نهايةِ الأُسبوعِ، وتحضُرُ معَهُمْ كلَّ المناسبات..

" بطـة" المرحـةُ المهـزارةُ قـدْ مـلأتِ الـدنيا فرحـاً، رُزقـتُ بـالأَوْلادِ والبنـاتِ، وَرُزقُـتُ حـبَّ زوجِهـا، مـرتْ عليْهـا الأَيـامُ، والسـنون مـا بـينَ أمـراضٍ شـتّى لأولادِها، وفقدِ أخيها الحبيبِ في مُقْتبلِ شبابِهِ، وبعضِ الأفراحِ المتناثرةِ في أيـامِ حياتِهـا، لقـدْ أخـذتْها الأيـامُ بحلوِهَـا ومرِّهـا، راضـيةً بحياتِهـا، تكـافحُ؛ لتجعلَ لأَوْلادِها مكانةً مرموقةً في هذهِ الدنيا.

أفاقـتْ على همسٍ خلفَهـا في أحـدِ الأفـراحِ، حرِصـتْ صـاحبتُه أنْ يصلَها أكثرَ من حرصِها على العكسِ:

- بطة سمنتْ جداً يا للخيبة! سيتركُها زوجُها و يتزوجَ، ذهبَ جمالُها، ألا يكفيه مرضُ أولادِهِ؟ كيفَ تخدُم أولادَها بهذا الحجمِ؟

- إننـي أسـمعُ صـوتَ أنفاسِـها المتلاحقـةِ رُغـمَ ضـجةِ الفـرحِ.

وأفاقـتْ، و كـأنَّ عينَهـا تـرى جسـدَها لأولِ مـرةٍ، و اندهشـتْ فعـلاً مـن حجمِها.

كانـتْ تـدركُ أنهـا سـمينةٌ، و لكـنّ الآنَ أدركـتُ كـمْ هي ضخمةٌ و ثقيلـةُ الحركةِ، ثقيلةُ الأنفاسِ، وتهيأَ لها أنَّ لهاثَ أنفاسِها أصواتُ رياحٍ عنيفةٍ صاخبةٍ .

أخفتِ انفعالَها بضحكةٍ وكلماتٍ مازِحةٍ لمنْ حولَها، وكأنَّها ما سمعتْ ما سمَّمَ دمَها، وأحرقَ أعصابَها، وأدمى قلبَها .

عافتْ نفسُها طعامَ العُرسِ عندمَا أدركتْ أن كلَّ العُيونِ عليْها وعلى الطبقِ الذي بيده، و كرَّتْ في عقلِها لحظاتٌ نغَزَها فيها الألمُ وأحستْهُ طوالَ أعوامِها الماضيةِ، وتجاهلَتْه كلَّما اجتمعتْ بالناسِ، أو تجوَّلتْ بالأسواقِ، أو ركِبتْ أيَّ وسيلةِ مواصلاتٍ، وكمْ سمِعتْ تعليقاتٍ سخيفةٍ، و ترفَّعتْ حتى عنِ التفكيرِ في السخريَّاتِ اللاذعةِ من سمنتِها، وتذكرتْ حيرتَها عندَ شراءِ الملابسِ، و تعالي و سخريةِ البائعاتِ منها : "لا يوجدُ مقاسُكِ يا "مدام!" وحيرتُها ماذا ترتدِي وقتَ خروجِها؟ لا شيءَ يصلُحُ، أو يواري هذه الامتداداتِ من كلِّ جوانبِ جسمِها، وتذكرتْ خجلَ ابنتِها في اجتماعاتِ و حفلاتِ المدرسةِ عندمَا تهامسُ صويحباتُها ويتغامزنَ: هذهِ أمُّكِ؟؟ ماذا تأكلُ؟؟ هل تأكلُ إخوتَك؟؟ ههههه! وجهُها جميلٌ، يا للخسارةِ لكنَّه ممطوطٌ جداً من السمنةِ انتبهي ستكونينَ مثلَها عندما تكبري، ويعتصرُ الألمُ قلبَها عندمَا امتنعتِ ابنتُها عنِ الطعامِ خوْفاً من أن تصبحَ مثلَها.

(٩)

ومن وقتِها قررتْ أن تزيلَ هذه السمنةَ، ولكنّها كانتْ تضعفُ أمامَ طهي أمِّها عندمَا تزورُها أو في المناسباتِ عندمَا تمتدُّ موائدُ الطعامِ الشهيِّ، وكلُّ هذا كانَ يضيعُ جِهادَ أيامٍ وجوعَ ساعاتٍ طوالٍ.

كمْ حاولتْ، ولكنَّها تضعُفُ أمامَ الطعامِ، وجاهدتْ نفسَها كثيراً، و بذلتْ جَهدًا رَهيبًا لتقاومَ الطعامَ، وتتحركُ لينقُصَ وزنُها، و كمْ جاعتْ وآلمتْها مفاصلُها فيزِيدُ عزمُها على المقاومةِ، ولا يكادُ اليومُ ينتهي إلا وهيَ ملتهِمةٌ من الطعامِ أكثرَ منَ الطبيعيِّ، و كلما نقُصَ وزنُها كيلو، تسترجعُ مقابلَه كيلوات.

هي رافضةٌ لهذهِ السمنةِ، رافضةٌ لثِقلِ خطواتِها، رافضةً لتسُلّلِ العجزِ لجسمِها الفتيِّ. تشتدُ إرادتُها ثمَّ تنهارُ مقاومتُها فجأةً، يشدُّها الحزنُ للطعامِ تفرغُ فيه إحباطَها وطاقتَها السلبيةَ، ولا يعطِيها الطعامَ سوى إحساسٍ أكبرَ بالفشلِ، تُعافي نفسَها الطعامَ لأيامٍ، ثم تنهارُ مقاومتُها، وتأكلُ حتى و إن كانتْ شبعى، وتأكلُ حتَّى ولوْ لمْ تحُس للطعامِ بلذةً.

تلتهمُ فقطْ حتَّى تُؤْلِمَها معدتُها، ويصُرخَ قلبُها بها :كفى، ستقتلينَ نفسَك، فتردُّ:

- الهمومُ هي التي ستقتلُني.

أخبرتْني :

- أريدُ أن أعيشَ، ولكنَّ الهمومَ تحاصرُني فلا أحسُّ بنفسي إلا و أنا ألتهمُ الطعامَ حتَّى أسهوَ عن آلامي، كي أنسَ مرضَ أولادِي واضطراري للهَروَلةِ بهمْ من مشْفى لمشفى، ومن متخصِّصٍ لمتخصِّصٍ، أنسَى موتَ أخي الصغيرَ، أنسى تعطُّلَ زوجي عن عملِه و انتقالِنا من سعةِ العيشِ للضيقِ، أنسى هجرَ الناسِ و الأقاربِ و الأحبابِ؛ لتكاثُرِ مشاكلِ ومشاغلِ الدنيا، أنسى نظراتِ الناسِ القاتلةِ الساخرةِ منِّي متى خرجتُ من بابِ البيتِ.

كرهتُ الناسَ والشارعَ، كرِهْتُ الأعراسَ و المناسباتِ و التجمعاتِ التي تكويني فيها الألسنِ والعيونِ بسببِ سمنتِي.

زوجي الحبيبُ ضاقَ أيضاً بسمنتِي، وبعدمَا كانَ كلامُه تلميحاً، أصبحَ تصريحاً و مجاهرةً بالضيقِ.

حاصرتْه الهمومُ و الضائقةُ الماليةُ و جلوسُه في البيتِ بالشهورِ بدونِ عملٍ، فأصبحَ كلُّ تركيزِهِ عليَّ و على سمنتِي، حتَّى ظننتُها سببَ ما نحنُ فيهِ منْ ضيقٍ ومشاكلَ.

حاولتُ لمراتٍ ومراتٍ لسنواتٍ عديدةٍ، من أجلي، منْ أجلِ أولادي، منْ أجلِ أن أستطيعَ الخروجَ و زيارةَ أمي.

لكنْ تدريجياًّ أصبحَ مجردُ التفكيرِ في الخروجِ من البيتِ يجلِبُ لي الهمومَ.

ماذا سأرتدي؟

لا شيءَ يصلُحُ.

ورغْمَ براعتي في الحياكةِ لكنّني كيفَ أُدارِي كلَّ هذَا؟ كيفَ سأسيرُ في الشارعِ وأسمعُ من هنا وهُناك ما يكدِّرُنِي؟ كيفَ سأركبُ أيَّ وسيلةِ مواصلاتٍ، و أتحمَّل تضجُّرَ الناسِ حولي من سمنتِي.

(١٠)

أكبرُ هُمومي كيفَ سأصعدُ السُّلمَ لشقةِ أُمِّي بكلِّ الآلامِ وانقطاعِ الأنفاسِ، وكأنَّ سكيناً تُغرسُ في رِئتِيّ.

سأظلُّ هُناكَ موجَوعةَ المفاصلِ، أتألمُ و أشكو من آلامِ ظهرِي وأرْجُلي وكلِّ ما بي .

تقوقعْتُ على نفسي رافضةً أيَّ اختلاطٍ بالناسِ، أُداري سمنتي عنِ الناسِ وعنْ نفسِي ؛فقاطعتُ النظرَ للمِرْآةِ.

أهربُ من حزنِي للطعامِ فأزدادُ حُزناً و قهراً .

وفي كلِّ يومٍ أصحو على أملِ أني سأقاومُ الطعامَ، سوف أصمُدُ، و لا أجني في آخرِ اليومِ إلا الحسرةِ والألمِ.

حتَّى استسلمتُ في النهايةِ بسببِ الألمِ و المرضِ و الحزنِ.

كلُّ يومٍ أستيقِظُ على أطباقٍ فارغةٍ حولي، و تمتلآنِ عيناي بالدموعِ ،

ماذا أفعلُ بنفسي، منْ حُزنٍ لحزنٍ، و منْ سمنةٍ لسمنةٍ أكثرَ.

هل الطعامُ دواءٌ؟ هل يُخفِّفُ الألمَ؟ ما هذهِ الدائرةُ الرهيبةُ المخيفةُ التي أدورُ بها؟

كمْ بكيتُ و تحسَّرتُ، كمْ ندمتُ و تمنيتُ الموتَ مخلِّصاً لي.

ساعاتٌ من الدموعِ و الندمِ، ويعقبُها وقفةٌ حازمةٌ بأنَّ غداً يومٌ جديد سأقاوم، سأحاولُ، و لكنَّهُ لا يمرُّ يومانِ إلا و يتجدَّدُ مشهدُ الالتهامِ يليهِ الدموعُ و الندمُ.

تسترسلُ :

- لا أعرفُ ماذا يحدثُ لي.

يبدأُ الأمرُ فجأةً على شكلِ وسوسةٍ: رغبةً في الطعامِ بدونِ إحساسٍ بالجوعِ، أقاومُها بكلِّ شدةٍ أُشغِلُ نفسي في أي شيءٍ .

أقاومُ، أُخبرُ نفسي أنِّي سأصمدُ، وصمدتُّ طوالَ اليومِ، و لكنَّهُ الليلُ والكلُّ نيامٌ و أنا متيقظةٌ. في النهارِ ألهو بعملِ البيتِ، بأولادي، بخدمةِ زوجي، بأيِّ شيءٍ يصرِف تفكيري عنِ الطعامِ.

و لكنَّهُ الليلُ حيثُ الفراغُ و الوِحدةُ، لا يأتيني النومُ. ماذا أفعلُ؟ و يبدأُ الوَسْوَاسُ في الإلحاحِ: سأتناولُ قطعةً صغيرةً من الحلْوَى، قطعةً صغيرةً فقطْ، و سأُكمِلُ صمودي.

أفتحُ البرَّادَ و آخذُ قطعةً صغيرةً منَ الحلوَى.

أحمدُ لم يُكمِلْ شطيرتَه و تركَها في رُكنِ البرادِ، سآخذُ قضمةً لذيذةً، وتعقُبُها قضمةٌ أخرى - كانت مالحة جدًا هكذا يحب طعامه - سأشربُ قطراتٍ منَ العصيرِ.

هذهِ الحلَوى شهيةٌ. تسلِمتْ يدُك يا بطة! ..طهيُك أفضلُ من أشهرِ الشيفات، قطعةٌ أُخرى.

ماذا فعلتِ؟ التهمتُ الشطيرةَ و أربعَ قطعِ حلَوى ونصفَ لترِ عصيرٍ.. لقد خربَ اليومُ.

(١١)

منَ الغدِ أبدأُ منْ جديدٍ.. أُغلقُ البرادَ بعدمَا أخذَ معي باقي صينية الحلَوى و زجاجةُ العصيرِ؛ فاليومُ قد خرِبَ و انتهى مادمت سأبدأُ من الغدِ، و حتَّى لا أَضعُفَ

غداً سأُنهي هذهِ الحلْوى كلَّها الآنَ، و معها أيضاً شطيرة.

انتهى الطعامُ من أمامي و امتلأتْ نفسي بالرعبِ.. ماذا فعلتُ بنفسي؟ ألنْ تنتهِ هذهِ الدائرةُ المشئُومةُ؟؟ لِمَ أُكِنُّ جوعي؟ لمَ فعلتُ هذا بنفسي؟

قالت لي صديقةٌ: أَشغلي نفسَكِ، لا تفكِّري في همومِك؛ الليلُ و الوحدةُ هما أعداؤُكِ في طريقِك لاستعادَةِ صحتِكِ.

لديْها كلُّ الحقِّ، ولكنَّني ماذا أفعلُ؟ لا يأتيني النومُ إلَّا في الفجرِ، و نومي و يومِي مضطربانِ.

ما إن أنامُ لساعتينِ حتَّى أستيقظَ لمدارسِ الأولادِ و تحضيراتِهم، ثمَّ التحضيرِ لذهابِ زوجِي للعملِ بعد ذهابِهم أنامُ قليلاً، ثمَّ أستيقظُ مسرِعةً أسابقُ نفسي لأُنهيَ عملَ البيتِ، و يأتي أولادي وزوجي ويملؤُون باقي اليوم من دروسٍ و طعامٍ و تنظيفٍ.

و أخيرًا يذهبُون للنومِ و أبقَى وحيدةً يتسلطُ عليَّ شيطانٌ يذكِّرُني بآلامي و أحزاني، و ينقلنْي من حزنِ اليومِ لحزنٍ من عشرِ سنواتٍ. يذكِّرُني بكلماتٍ سمعتُها و نسيتُها منذُ ساعاتٍ أو أيامٍ أو سنواتٍ، و

يطمسُ على عقلي و قلبي، و أتوتَّرُ، و أقلقُ، و أحسُّ بأن لا فائدةَ من أيِّ شيء.

إلى أينَ تسيرُ حياتي؟ أحاولُ الخروجَ من هذه الحالةِ، و لكنَّهُ يحيطُ بي إحباطٌ وآلامٌ تسكنُ قلبي، وجْداني، و أحسُّ بثقلٍ يجثِمُ على صدري، و تبدأُ الوسوسةُ و الرغبةُ في عملٍ أي شيء أو تناولِ الطعامِ.

دائرةٌ جهنميُّةٌ رهيبةٌ عشتُ فيها لسنواتٍ وسنواتٍ.

يبدأُ اليومُ بعزيمةٍ، وينتهي بهزيمةٍ.

كبُرَ أولادي، و ذهبَ كلٌّ منهُم في طريقهِ، و أحمدُ اللهَ فقدْ نالوا أكبرَ قسطٍ من التعليمِ و الثقافةِ، و تزوَّجوا، و عمِلوا، و ارتقوا في حياتِهم، و فرحتُ بهم، و انعزلْتُ أكثرَ. عندمَا كانوا حولي كانَ لديَّ الحافزُ لمحاولةِ أن أعيشَ، و لم يخمدْ داخلي الأملُ طوالَ سنواتٍ أني سأنتصرُ على إرادتي الضعيفةِ، و أُنزلُ وزني، و أستردُّ صحتِي. أخبرتني "بطة": أنهُ كانَ يحدُوها الأملُ دائماً أنها ستقدرُ على الصمودِ، و ستعلو على حزنِها، و تستطيعُ أن تُقاوِمَ التهامَ الطعامِ، و بعدَ محاولاتٍ و شدٍّ نفسيٍّ رهيبٍ انتصر عليها اليأسُ.

وهكذا خلا البيتُ من الحافزِ الأقوى لأمَلِها.

خلا البيتُ إلا من مصمصات فمِ زوجِها:

- خَسارة.. خَسارة جمالُك و روحُك الحلوةُ في السمنةِ.

و بمرورِ الوقتِ عجزتْ حتى عن خدمةِ زوجِها و نفسِها، كم شدَّتْ على نفسِها، و تخطَّتْ آلامَها بقدرِ طاقتِها.

حاولتْ أن تُعطيَ هذا الرجلَ الذي تحمَّلها أقلَّ واجبٍ ممكنٍ تستطيعُهُ هيَ و صحتُها الذاهبةُ.

(١٢)

و أتى الألمُ الأكبرُ و ما كَسر آخرَ قلاعِ مقاومَتِها، و أسبغَ عليْها بأبشعِ الآلامِ و الأحزانِ، لقدْ ماتَ زوجُها.، و تركتْ بيتَها، و أصبحتْ مثلَ الحقيبةِ، تُحملُ من بيتِ ابنِها لبيتِ ابنتِها، أحستْ بالعجزِ و القهرِ، احتاجتْ لرعايةٍ مُكثَّفةٍ، و لم تتحمَّلْها ابنتُها التي تعملُ بوظيفةٍ تتطلبُ الوقتَ و الطاقةَ، و أبناءٌ و بيتٌ و زوجٌ، وتضجَّرتْ منها زوجةُ ابنِها

اتفقوا على وجودِ ممرِّضةٍ معها في بيتِها، تُشرفُ على علاجِها و طعامِها ونظافتِها، و لكن هلْ ستعيشُ معها الممرضةُ طوالَ اليومِ؟ .

ألنْ تحتاجَ لراحةٍ أو تزورُ أهلَها؟؟

و أنهَتْ آخرُ ممرضةٍ هذا الحال، و أتتْ بالحلِّ الجديدِ.

تقولُ مُحدِّثةً ابنَها:

- الوزنُ كبيرٌ جدًا يا أستاذ! أنا أريدُ معي اثنيْن حتى أستطيعَ تبديلَ ملابسِها، وكيفَ أحملُها حتَّى أُغيِّر فِراشَ السريرِ؟ سوى دخولِ الحمَّامِ. حرامٌ .. الست تعاني و تتألمُ، ضعُوها في دارِ رعايةٍ، هذا أرحمُ لكمْ و لها، و بأموالٍ كما ترغبون.

قاومَ أولادي هذا كثيراً، و لكنَّ الممرضةُ أسرَّتْ لي بهذا الحلِ قبلَ أن تأخُذَ معها حقيبتَها و ترحلَ هاربةً.

قالتِ ابنتي: سأستقيلُ من عملي، أصابني الهلعُ، بعد كلِّ ما بذلتُه حتَّى تُشفى هيَ و إخوتُها من أمراضِهم، ويقاوموا أيَّ إعاقةٍ.

بعدمَا كافحتُ حتَّى نجحوا، وأصبحوا في مراكزَ مرموقةٍ، أكونُ أنا السببُ في تعطُّلِ حياتِهم و استقالة ابنتي من عملِها الذي تعشقُه وتتدرجُ ارتفاعًا فيهِ بسرعةٍ كبيرةٍ؟

أنذرتُهم أن لا يجعلُوني أغضبُ عليهمْ في آخرِ أيامي، أيريدُون أن أموتَ و أنا غيرُ راضيةٍ عنهُم؟

لكلٍّ منهمْ حياتُه، و لكلٍّ منهمْ مسؤولياتُه، و في الأخيرِ لكلٍّ منهمْ طاقتُه، و انتصرتُ في أن أُقنعَهمْ بدارِ المسنينَ، و كلٌّ منهمْ يستطيعُ أن يراني في أيِّ وقتٍ، و يتصلُ بي متى شاءَ.

أوْدعُوها في دارِ المسنينَ في غرفةٍ خاصةٍ، و تركوا قلوبَهم معها، ولا تمرُّ سويعاتٌ إلا و تحدِّثُهم عبرَ الهاتفِ، و يمرُّ الابنُ أوِ الابنةُ أوِ الأحفادُ و لو ليلقى عليها نظرات خاطفة كل يوم.

لا تخلو غرفتها من أحدهم.

إحساسُ العجزِ، وأنَّها تكلفُ أحبابَها أكثرَ من طاقتِها يؤلمُها.

الآنَ مهمَا امتنعتْ عنِ الطعامِ.. لا يُجْدي. تكاثرتْ عليها الأمراضُ وعجزتْ تماماً عن الحركةِ.

عينُها الشقيةُ و ضحكتُها المجلجِلةُ فحسب هُما من يخبران الناسَ أنَّها مازالتْ على قيدِ الحياةِ.

نبضُ القلبِ هو الحركةُ الوحيدةُ الباقيةُ لها.

مـن هُنـا تحـرَّكَ قلـبُ الأمِّ داخلي نحـوَ "بطـة" رغـمَ تقاربِنـا في العمـرِ، أحسستُها ابنتي

(١٣)

الصغيرةَ الضعيفةَ التي تحتاجُني، والتي أحتاجُها أيضًا لأعيشَ، و أخرجُ من وحدَتي .
أخذتُ على نفسي عهداً أن أنقذَ" بطة" و أُخرجَها من سجنِ شحومِها.
قررتُ أن أُخاطبَ الأطباءَ في أمرِها، و أرجُوهم أن يتركُوا لي محاولةَ إنقاذِها.
كمْ تألمتُ من نظراتِهم التي تخبرُني بألا فائدةَ.
السيدةُ عاجِزةٌ تمامًا عن الحركةِ، تصيبُها القروحُ من النومِ طويلاً بالفراشِ بدونِ حركةٍ، سِلوتُها الوحيدةُ الطعامُ رُغمَ خطرهِ عليْها.
تكالبتْ عليْها الأمراضُ: الضغطُ، السُّكَّري، ضيقٌ في الشرايينِ، آلامُ المفاصلِ و العظامِ، و تهديدٌ بأمراضٍ من الممكنِ أن تستجِدَّ في أيِّ لحظةٍ.
أقنعتُها أن تتْبعَ نظامي في الطعامِ لمدةِ شهرٍ، و كمْ عانيتُ، و عانتْ "بطة" معِي، و أنا أُشجِّعُهَا.
- أُمنيتي أن أراكِ تترُكين هذا السريرَ.
فتحلُمُ عينُها الطفلةُ الشقيَّةُ، و تكْمِلُ:
- وأَخرجُ من غرفتي وحدي، بدونِ أن يحملَني أحدٌ، و أجلِسُ معكُمْ في غرفةِ المعيشةِ.. و أتنزَّهُ مستمتعةً بحرارةِ الشمسِ في الحديقةِ، و أسهرَ معكمْ في ليالي الصيفِ بالحديقةِ و نحتفلُ.

و يكبرُ الأملُ في قلبي وقلبُها، و أقول: يا ربِّ.
وكانَ لا بُد أن نعرفَ وزنَ بطة؛ لنقيسَ تقدمَّها على هذا النظامِ، و كم هالَها الرقمُ الذي ظهرَ على الميزانِ، و إنْ أخفتْ هذا بسخريتِها من الميزانِ و طريقةِ وزنِها؛ فهي عاجزةٌ عنِ الحركةِ والوقوفِ؛ فتمَّ وزنُها بميزانٍ خاصٍ و هي جالسةٌ على الكرسيّ، وتضحكُ:

- يوجدُ ونش مخصوصٌ للحمولاتِ الثقيلةِ، هاتوا ميزانَ القُطنِ.

وكمْ بكى قلبي و قلبُها منْ سخريتِها المريرةِ من نفسِها.

تعبْنا أنَا وهيَ، أشدُّها للنظامِ و تحاولُ الفرارَ منهُ.

حاصرتُها، و أخبرتُها: أن لا طعامَ ممنوعٌ، كلُّ ما ترغبينَ في أكلِه تناوَلِيهِ، و لكنْ بكميَّةٍ صغيرةٍ، مجردُ لقيماتِ، لن تجوعي، فبمجردِ أن تشْعُري بالجوعِ خذي كوبينِ من الماءِ، و بعدَ قليلٍ تناولي لقيماتٍ مهمَا كانَ نوعُ الطعامِ.

و كمْ وجدتُّ من سخريةِ الأطباءِ، وكذلكَ صديقاتي في الدارِ، و كانَ السؤالُ: تأكُلُ كلَّ شيءٍ، و تريدُ أن تخسرَ وزناً؟ إنها تأكلُ كلَّ ساعةٍ أو ساعتينِ تقريباً.

أُخبرُهم أنَّ المهمَّ أنَّها تأخذُ كمياتٍ صغيرةٍ و محددةٍ و هذا هو المهمُّ.

حتَّى بطة لمْ تكنْ تصدقْني، و كم قستْ عليَّ بالكلامِ، وأني أحرمُها من الطعامِ، فأُجيبُها: لا تفتري عليّ، ألم تأكُلي قطعةَ شكولاتة من ساعةٍ؟ ألن تأكُلي بعدَ ساعةٍ أُخرى وجبةً من المحشي الذي تحبينَهُ.

- اثنا عشرَ إصبعاً من محشي ورقِ العنبِ وجبةٌ؟ أنا أُرضي ذمَّتَكِ، رُدِّي.

(١٤)

هل تكفِي؟

- ستكفِي.. مع ورقِ العنبِ سلطةٌ و قطعةُ بسبوسة بالقشدةِ. فتبتسَّمُ الطفلةُ في عينيْها و تقولُ:

- جرى ريقِي، أينَ الطعامُ؟

- بعدَ أقلَّ منْ الساعةِ و ستأكُلينَ.

ومنَ المُمْكنِ بعدَ ثلاثِ ساعاتٍ تأخُذينَ وجبةً أُخرى منَ المحشي و السلطةِ و البسبوسة، أوْ تكتفينَ منهُ بلُقَيْماتٍ.

هيَّا نستمعُ لمسلسلِنا المفضَّلِ حتى يمرَّ الوقتُ سريعاً و هكَذا كرَّستْ نفسي لتطبيقِ نظامِ اللُّقَيْماتِ على بطة.

و بشَّرْتُها بأنَّ صبرَها سيكونُ عاقبتُه خيرًا، و أنْ تُوكِلَ أمْرها للهِ، و كمْ ترقَّبْتُ النتيجةَ التي أجزمُ أنَّ اللهَ سيُفرحُني بها، وحتى يكُفَّ الجميعُ عنِ الاستهزاءِ بي.

ألا يروْن أثرَ هذا النظامِ الذي أطبقهُ من سنواتٍ طويلةٍ على صحَّتي ونشاطِي؟ أليسَ في هذا دليلٌ على فاعليتِه؟

مرَّ الشهرُ وأتى يومُ الميزان، وكانتِ الفرحةُ و الدهشةُ، لمْ يصدُقْ أحدٌ مقدارَ الوزنِ الكبير الذي فقدتْه بطة، حتى أنا اندهشتُ لأني لم أتوقعْ

هـذا الـرقمَ الكبيـرَ، و حمـدتُ اللهَ كثيـراً، وأنـا متأكـدةٌ أنَّ هـذا جـزاؤُهُ للصابرينَ المتوكلينَ عليهِ حقَّ التوكلِ.
و شاهدتُّ وسطَ دموعِها فرحةً وأملاً وعزيمةً جديدةً تشِعُّ منها، و تنتشرُ في كـلِّ عروقِهـا، سـوف أخـس، سـأتركُ السـريرَ، سأمشـي و أتحـركُ.
حـاولَ أولادُهـا الاحتفـالَ بها عـنْ طريـقِ الحلويـاتِ والطعـامِ، وكـمْ فـرحـتُ عنـدما رفضـتْ بصـلابةٍ تنـاولَ أيِّ طعـامٍ إلا في موعـدِه، ولـن تتنـاولَ إلا نصفَ قطعةٍ منَ الجاتو، و لا شيءَ آخرَ معها .
- وَزِّعـوا الحلـوى على الـدار، وأحضـروا لي بعلبـةٍ صـغيرةٍ أنتقي مكوناتِهـا بنفسي و اتركوها بالثلاجة، سآخذُ كلَّ يومٍ قطعةً صغيرةً فقط منها.
أريدُ أنْ أستعيدَ صحتِي و حركتِي .
وُلــدتْ مـن جديـد، عــادتْ بطـة لحياتِهـا و آمالِهـا، و تركـتِ الانهـزامَ و الاستسلامَ لقلةِ العزيمةِ.
((وفرحتُ بابنتي وصديقتي بطة)).
و بـدأَ الأطبـاءُ في إجـراءِ العـلاجِ الطبيعي لتُلـينَ مفاصلَها، فهي حبيسـةَ الفـراشِ، منْ سنواتٍ، و أقبلـتْ -أيضـاً- تلهُفـاً على النتيجـةِ رغـمِ الألـمِ و التعـبِ، وأصـبحتْ تـنظِّمُ أوقاتَهــا و طعامَهــا بنفسِـها بـدونِ الحاجـةِ لتذكيري، و بدونِ أن ألجأَ لإلهائِها عنِ الطعامِ.

وكانَ يومُ تركِها للسريرِ وسيرِها حتَّى بابِ الغرفةِ، وأنا أقفُ أمامَها أشجعُها، وأمدَّ لها يدي، ولا ألمسُها كأنَّها طفلتِي الصغيرةَ أحثُّها على السيرِ لأولِ مرةٍ في حياتِها.

طفلةٌ كبيرةُ الحجمِ بضحكةٍ بريئةٍ رنانةٍ، تنقلُ قدماً وراءَ قدمٍ، خطوةً وراءَ خطوةٍ، حتى وصلتُ للكرسيِّ الذي وضعتُهُ لها أمامَ البابِ، وجلستْ عليهِ مبهورةَ الأنفاسِ. تزغرد عيناها فرحةً.

(١٥)

ركعتُ على ركبتي واحتضنتُها، وارتج جسدي و جسدُها ببكاءٍ شديدٍ تتخللُه ضحكاتٌ، وفرحٌ.

- لم أمشِ هذه المسافةَ منذُ عشرِ سنواتٍ.

- الحمدُ لله..

تمالكتُ نفسي و أنا أحاولُ أن أقفَ فلقدْ خانتني قدمي و ارتجفتُ من توتُّري و فرحتي، قبَّلتها، واحتضنتُ رأسَها، وغمرتُها بقبلاتي، و امتزجتْ دموعُنا.

انطلقتْ زغرودة من حولِنا.

- اللهُ أكبرُ

- ما شاءَ اللهُ.

- هذا يومُ فرحٍ..

و وجدْنا كلَّ منْ بالدارِ، صديقاتِنا، العاملاتِ، الأطباءَ والممرضاتِ، كانَ يومَ فرحٍ فعلاً .

بطة هي العروسُ و صحتُها و عافيتُها هي العريس.

لنْ أصِفَ مشاعري، لا أعرفُ كيفَ أصفُ الفرحةَ الممزوجةَ بالفخرِ و الإيمانِ.

مشاعرٌ كثيرةٌ أعجزُ عن وضعِها في كلماتٍ.

ابنتي انتصرتْ، و ها هيَ بعدَ شهورٍ تسيرُ هنا و هُناك بجسدٍ رشيقٍ و روحٍ مرفرفةٍ بالفرحِ في كلِّ مكانٍ .

ودَّعتْ أغلبَ أمراضِها، وألغى الأطباءُ معظمَ أدويتِها فلمْ تعدْ لهَا بها حاجةٌ، وأنعشتْ قلوبَنا بهزارِها و ضحكِها .

رفضتْ أن تغادرَ الدارَ، وأخبرتْ أولادَها.

- هُنا وُلدتُّ من جديدٍ، وأنتمْ كبرتمْ. هنا من يحتاجُني و أحتاجُهم، أعلِّمُ بناتٍ يتيماتٍ الحياكةَ و التفصيلَ، أساعدُهنَّ حتى يخضُنَ حياةً مليئةً بالعملِ و الأملِ، أمنعُ عنهنَّ التشردَ والحاجةَ بتعليمهنَّ حرفةٍ.

من سنواتٍ طويلةٍ لمْ أحس بأنَّ أحداً يحتاجُني، كنتُ عبئاً عليكمْ جميعاً.

الآنَ أنا أساعدُ غيري، ولستُ عبئا على أحد.

الآن أُعطي ما أعجزتني سمنتي أن أعطيَه في شبابي، أحسُّ بالحياةِ و أنا أرى صديقاتي هنا، و كأني عدتُّ لمرحلةِ المدرسةِ و تجمُّعِ الصديقاتِ و التحدثِ و القيامِ بواجباتِنا..

حياةٌ حرةٌ، مرحةٌ، و مسؤولياتي أنا من أحددُها لنفسي.

لقد عُدتُّ للحياةِ و العطاءِ، أن للعطاءِ لذةً لا يعرفُها إلا منْ يُعطي بقلبٍ مخلصٍ صافٍ، ومنْ ذاقَ لذةَ العطاءِ لا يستطيعُ أن يستغنيَ عنها أبداً.

ولا يقدرُ حتَّى أن يكفَّ عن عطائِه.

وهـا أنـا أطِلُّ على بطـة -التي عرفـتُ مكانَها مـن صـوتِ الضحكاتِ - و هيَ تساعدُ صديقةً في الدارِ، في غرفِ الحالاتِ التي لا تستطيعُ خدمةَ نفسِها، و ها هوَ تعبٌ من لذةِ العطاءِ ومساعدةِ الغَيرِ.

- صباح الخير يا بطة، متعجلةٌ أنا اليوم فلقدْ زارني الكسلُ، سأذهب الآنَ للحديقةِ، ونتقابلُ عندَ الغدِاء.

(١٦)
مِرآةٌ ثانية
ومرَايا صغيرةٌ جانبيةٌ

حــديقتي وجَنَّتـي! مـا أطيـبَ هــذهِ الرائحــةَ وهــذا المنظــرَ الخــلَّابَ! أشجارُ الفاكهـةِ الحبيبةُ الظليلةُ، نباتـاتِي الصغيرةُ و زهراتِي اليانعةُ هُما جزءٌ من حُلمٍ لطالما حلُمتُ بهِ و تمنيتُهُ لسنواتٍ .

أقضي ساعةً تقريباً في العنايةِ الدوريةِ، لا مواسمَ لغَرسٍ جديدٍ أو حصادٍ الآنَ.

خلايا النحلِ نشيطةٌ كالعادة، وما حولها نظيفٌ للغايَةِ .

لقـدْ قامـتْ "أمُّ حسـني" بـاللازمِ عنـدمَا تـأخرتُ اليـومَ، بـاركَ اللهُ لهـا! و الآنَ، أحبُّ هذا الجزءَ في صباحِي، و أرفضُ أن يقومَ به غيري ؛ هي رغبةٌ طفوليةٌ أنتعشُ بها، وهذا الضجيجُ الذي أحبُّه، حظيرةُ الدواجنِ و نقنقةُ الدجاجاتِ و صياحُ الديكِ، و لكنَّها كانتْ أكثرَ من المعتادِ ؛ إنه الجوعُ و طلبُ الطعامِ، ضجةٌ كبْرى.

ولتـأخُّري اليـومَ تـأخرتْ هُـدى كـذِلكَ في تنظيـفِ المكانِ، و لـمْ تضَـعْ لهـمُ الماءَ، أو الطعامَ حتى آتي، و أُتمَّ مهمتِي اليوميةَ.

أخذتُ السلةَ المعلَّقةَ بجوارِ بابِ الحظيرةِ، فتحتُ البابَ و دخلتُ وسطَ الصياحِ و النقنقةِ، و بهدوءٍ فتشتْ عيني عنِ البيْضِ، آه! كمْ ينشرحُ صدري لرؤيتهِ، و تمتدُّ يدي و أفرحُ كلَّما أحْسستُ بدفءِ بيضةٍ منهمْ، ودجاجاتِي لا ترغبُ في هذا، و أضطرُ -أحياناً -لزحزحةٍ واحدةٍ منهنَّ لآخذَ البيضةَ من تحتِها، ليسَ الآنَ وقتُ الرقادِ على البيضِ، اصبري! بعد عدةِ أيامٍ . جمعتُ البيضَ، إحساسٌ جميلٌ أحسُّهُ أثناءَ و بعدَ جمعِ هذا الخيرِ.

خرجتُ من الحظيرةِ و فزعتُ لوقوفِ "هدى" أمامِي.

- لِمَ تأخرتِ؟ ذهبتُ لأشربَ كوباً من الشاي حتى تأتِي، خِفتُ أن أُنظِّفَ المكانَ و أُطعِمَ الدجاجَ قبل أن تأتيَ، و تجمعي البيضَ فأُعاني من عفاريتِ عصبيتِك .

- أحسنتِ، و نجوْتي من عفاريتِي و عصبيتِي كمَا تقولينَ، أنتِ تعرفينَ أني أحبُّ مشاهدةَ البيْضِ في القشِ، و جمعَهُ من تحتِ الدجاجِ و الأركانِ.

انتهيتُ، هل أخَّرتُكِ عنِ الديوانِ؟ ألمْ تستفيدي و تشربي الشاي؟ سآخذُ البيضَ للمطبخِ، سلام .

وافترقْنا بضحكةٍ عابسةٍ على وجوهِنا .

بجوارِ قنِّ الدجاجِ كان بابُ المطبخِ.

- "مدام سلوان"! تأخرتُ اليومَ، الحمدُ للهِ لديْنا مخزونٌ من البيضِ في الثلاجةِ، صباحُكِ أبيضٌ.

أخـذتْ "صـفاء " رئيسـةُ الطهـاةِ منّي البـيضَ، و بـدأتْ تُلقي الأوامـرَ على مساعداتِها

- طـولَ اليـومِ ستغسـلينَ الأطبـاقَ؟ عَجّلِي، سنسـتعدُ لعمـلِ الغـداءِ، أيـن الخضراواتُ؟ لا..قطّعي أصغرَ قليلاً.

ثم متوجهةٌ لي بالكلامِ:

- تعالي اشربي قهوتَك معنا، هل آتي موعدَها؟

- بالتمامِ. مضتْ ساعةٌ على إفطارِي لكنّي سآخذُها في الحديقةِ.

توجهتُ للمقاعدَ تحتَ تكعيبةِ العنبِ، إنها تحتاجُ لبعضِ التقليمِ، سأنبّهُ على " أم حُسني " لتساعدنِي في ذلكَ غداً.

نزعـتُ حقيبتِي التي أعلِّقها حـولَ كتفِي ورقبتِي، وأخرجـتُ "الآي بـاد". فتحتُ حسابِي؛ لأطمئِّنَّ على أحبابِي من صفحاتِهم و قـراءةِ منشـوراتِهم. مـلأَ الفـرحُ قلبـي، و امتـدَّ لشـريانِي؛ ظفِـرتُ بارتيـاحِ، إنهـمْ بخيـر. كم أعشقُ هذهِ التكنولوجيَا، لقدْ أتاحتْ لي الطمأنينةَ عندما يعزُّ اللقاءِ، مجردَ أن أقرأُ، و أُشاهدُ تعليقاتِهم ؛لأعرفَ أحْوالَهم .

أتـتْ قهـوتي.، و بـدأتُ أشـربُها، و أتلـذَّذُ بهـا ممزوجـةً بأخبـارِ أولادي و أحفادي .

و أخذتني الذكرياتُ كعادتي.

منذُ عشرينَ عاماً كنتُ في نفسِ الوضعِ و نفس القهوةِ و لكنْ في بيتي . أبنائي في مدارسِهمْ، و أنا أطالعُ الانترنت؛ لأعرفَ أخبارَ الدنيا والناسِ.

عشـرونَ عامـاً مضـتْ مـن دفـءِ البيـتِ، والمشـاعرِ والانشـغالِ بالأحبـابِ وطلباتِهم و طلباتِ البيتِ، منْ مهمةٍ لمهمةٍ، وبينَ واحدةٍ و أُخرى أجلسُ لدقائقَ معدودةٍ ؛ لأُطالعَ أخبارَ الدنيا و الناسِ، و أعرفُ أحوالَ صديقاتِي منْ وراءِ الشاشـةِ، فلـم تكـنْ لي صـديقاتٌ أتقابـلُ معهُـنَّ وجهـاً لوجـهٍ؛ لانطـوائي وخجلي الشـديدِينِ أحيانـاً؛ ولتباعُـدِ النـاسِ وانشـغالِهم كثيراً.
و الآن، أشعرُ بالغربةِ رُغمَ كثرةِ الناسِ حولي و حبِّهمْ لي.
فراغٌ شديدٌ رُغمَ كثرةِ، و تعددِ اهتماماتِي و أعمالِي هُنا..

(١٨)

لَكَمْ أدركتُ و شعُرتُ بمعنى هذهِ الآيةِ التي تقولُ:" و أصْبحَ فؤادُ أمِّ مُوسى فارِغاً "

هذا الفراغُ القاسي الموحشُ في قلبي سببُه بُعدي عن أبنائِي .

في تلكَ الأيامِ كلُّ ما مرَّ بي- مهما كانتْ تفاهتُه- لهُ دفءٌ وقيمةٌ محببةٌ. تمنيتُ أن أكونَ في بيتي، و أن تعُودَ تلك الأيامُ بهمومِي الكبيرةِ والصغيرةِ، أذهبُ بصغيرتي إلى المدرسةِ، وأرجِعُ منها، تحضيراتُ الغداءِ، الذهابُ إلى السوقِ .. غسيلُ الملابسِ .. طلباتُ أبنائي .. دروسُهم .. مطبخي.. حتى قلقِي يومَ وقوفي على الميزانِ أَحنُّ إليه، ولكنَّ الزمنَ لا يعودُ .

حتى في تلكَ الأيامِ -من عشرينَ عاماً مضتْ- كانَت في تفكيري "دارُ المسنين" و أدركُ أحياناً أني قد أكونُ بها في يومٍ من الأيامِ ؛ حفْظاً لكرامتِي و حفْظاً على حبٍّ في قلبِ أبنائي، وأخشى أن يتحولَ للمللِ من خدمتِي، و طلباتِي عندمَا أكبُرُ و أعجزُ عن خدمةِ نفسي .

نعمْ. كنتُ أُدركُ من زمنٍ أني سأكونُ هنا.؛ فلديَّ قريبٌ بعيدٌ قدْ وضعَه أولادُه في قصرهِ الريفِيِّ برفقةِ زوجتهِ عندما كبُرا في السنِّ، و أقامُوا على خدمتِهِ حارسَ الأرضِ و القصرِ.

سمعتُ تعليقاتٍ متناثرةٍ من الناسِ، محبوسٌ في القصرِ الذي ظل يبنيهِ لعشرةِ أعوامٍ، و يجهزُه.

يستأنسُ في وحدتِه بأغاني أم كلثوم المسجلةِ و حفلاتِها، و بكتبِه في مكتبتِه الضخمةِ التي قد جمعَها طوالَ سنواتٍ عدةٍ .

أردتُّ زيارتَه؛ لأُهديَهُ مجموعةً قيمةً من الكتبِ، وكنتُ أدركُ كمْ سينشرحُ بها قلبُهُ وعقلُه ؛ فأنا أدري بمشاعرِ مُحبي الكتبِ، و القراءةِ عندَ اقتناءِ كتبٍ جديدةٍ.

لكن جاءتْني الأخبارُوالتحذيراتُ:" ممنوعُ دخولِ أحدٍ حتى من بابِ الحديقةِ".

فسألتُ:

- لماذَا؟ أهو مسجونٌ؟

- يقولُون إنَّه ينسى، يسبُّ، عصبيٌ جداً، و ثائرٌ دائماً، و أولادُه يمنعونَ أن يزورَه أحدٌ .

- طوالَ عمرهِ و هو عصبيٌ، ما الجديدُ إذاً؟ وحدتُه ستُزيدُ من عصبيتِهِ، ماذا فَعل ليُحبسَ هكذا و هو الرجلُ النشيطُ، مهندسٌ زراعيٌّ طبَّقَ كلَّ علمِه في الزراعةِ بأرضِه و حديقتِهِ.

ماتتْ زوجتُه و هُمَا في محبسِهما رُغمَ نفورِها منهُ كانتْ نعْمَ الأنيسُ، مرضتْ و أتتْها سكراتُ الموتِ في ليلةٍ، و احتارَ ماذا يفعلُ؛ فنداؤهُ لا يصِلُ للحارسِ ؛ فسكنُه في

(١٩)

آخرِ الحديقةِ بعيدٌ للغايةِ، والهاتفُ معطَّلٌ، ربَّما عنْ عمْدٍ حتَّى لا يتصلَ به أحدٌ.

قالَ إنهُ ظلَّ حائراً يصرخُ حتى ينجدَ أحدٌ زوجتَه ولا من مجيبٍ .

عجزٌ، وخيبةُ أملٍ، وندمٌ قد انفردوا به طوالَ ليلةٍ أطولَ من كل سنينَ عمرهِ، وأتى الحارسُ في الصباحِ كالمعتادِ بالإفطارِ، ولكنَّ روحَها كانتْ قد فاضتْ من ساعاتٍ، وهوَ منهارٌ يبكي، ويصرخُ، ويهذي ألماً .

أصبحَ وحيداً مع الذكرياتِ، و الألمِ، و الجحودِ، و عجزٍ كان كبرُ السنِّ سببَه و الصدمةُ في مآله بعد كلِّ هذا العمرِ، و سكونُه عن الحركةِ بعدَ نشاطٍ متعددٍ ودؤوبٍ .

أينَ الأحفادُ الذين عاشروه، واهتم بهم أكثرَ مما اهتم بهم أمهاتهم و آبائهم؟.

ألَا يذكرُ أحدُهم، أو إحداهن حنانَه و عطفَه و اهتمامَه؟ لقد عاشُوا معَهُ في بيتهِ لسنواتٍ أكثرَ مما عاشُوا في بيتِ آبائهم .

كان - دائماً- هو الملاذ، والملجأُ عند انشغالِ أيِّ أحدٍ من أبنائه في عملهِ و حياتِه .

زوجـةُ ابنـهِ الكبيرِ ملَّـتْ مـن تخصيـصِ بعـضِ أطبـاقٍ مـن الطعـامِ يوميـاًّ؛ ليقـومَ بإرسـالِها لـهُ ابنُـه كغـداءٍ، ورفضـتْ أن تقـومَ بـذلكَ وحـدَها، و لـهُ ثلاثةُ أولادٍ آخرينَ متزوجينَ .

والطعـامُ - كـذلك - الـذي يُرسـلُ إليـه في محبسِـهِ الجميـلِ ضنُّـوا بـهِ عليـهِ، وتركُـوا كلَّ حياتِـه و معيشـتَه للحـارسِ و زوجتِـه، وطبيـبٌ يأتيـهِ مـرتينِ في الشهر .

كمْ فكرتُ عند استماعي لشذراتٍ من أخبارِه: ولِمَ هذا العذابُ؟ الأفضلُ لـو ذهبُـوا بـهِ "لـدارِ المسـنينَ" سـيجدُ الرعايـةَ، و العنايـةَ و الصحبةَ والأنيسَ.

هُـمْ لـمْ يهتمـوا بـه، أو بحالتـهِ النفسـيةِ، ولكنَّهم اهتمُـوا فقـطْ بمظهـرِهِم الاجتماعي أمامَ الناس.

كيـفَ - وهـم المرموقـون اجتماعيًّا ووظيفيـا -يعرفُ النـاسُ أن أباهـم في دارِ مسنينَ؟

و ماتَ وحيداً، مكسورَ القلبِ، مكلومَ الروحِ، منسياًّ كأنَّه ما قـامَ بتربيـةٍ، ولا اهتمَّ، ولا تعِبَ حتَّى كبرُوا.

ضنُّوا عليـهِ بالنـاسِ فحبسـوه في بيـتٍ بنـاهُ لسـنواتٍ ليجتمـعَ فيـهِ بهـم و بأحفادهِ.

ضنُّوا عليهِ بالاهتمامِ ؛ فكلٌّ مشغولٌ بحياتِهِ، و هو منْ كانتْ جلُّ حياتِه من أجلِهم.

ضنُّوا عليهِ بالصحبةِ، و حصرُوها في حارسٍ أُميٍّ ليسَ بينَهم أي اهتماماتٍ، أو ثقافةٍ مشتركة، و يهتم به فقط من أجل رَاتبِه و ليت اهتمامه يرقى لقيمةِ راتبهِ!.

ضنوا عليه بضحكةِ حفيدِ تَرُدُّ إليه أياماً و ضحكاتِ عمرِه الذي فني .

زياراتُهم متباعدة، واجبٌ لا أكثرَ حتى لا يقولَ الجيرانُ عليهم: لا أحدَ من أبنائه يزوره .

جملُهم مكرَّرةٌ، مجاملاتٌ ليسَ بها من دفءِ البُنوَّةِ شيءٌ، و سُرعانَ ما يمِلُّون في انتظارِ مُضيِّ الساعةِ؛ حتى يفرُّوا منهُ لحياتِهم التي جاهدَ طوالَ عمرِه ليؤَسِّسَها لهُم .

(٢٠)

حتَّى الشكْوَى منهُ لا تجدُ منْ يسمعُها و يعيها، ولا تجدُ سِوى التضَجُّرِ في قلوبهم، و ضيقٍ يظهرُ على الملامحِ.

كمْ ناشدَهمْ:

قولُوا لربيع :أن لا يجبرَني على الطعامِ .

قولوا لربيع : أن يتركَ الضوءَ ليلاً حتى أستطيعَ القراءةَ .

ويكونُ الردُّ:

- اسمعْ الكلامَ يا أبي!.

هه؟

تبدلتِ الأدوارُ؟ و ابنُه ينهرُه ليطيعَ حارسَه كما كانَ ينهرُ هو ابنَه صغيراً، ليطيعَ معلمَه؟ أين هذا من ذاكَ؟

متى أخطأَ؟؟ و كيفَ أخطأَ؟؟ حتَّى وإن أخطأَ!

آه! لو يدري الأبناءُ بقسوةِ جحودِهم على قلوبِ الآباءِ، و أن يَرى الأبُ أو الأمُّ أنفسُهم-بعد نفاذِ القوةِ والعمرِ- أنَّهمْ بلا مُعينٍ أو سندٍ، بلْ أن يرى كلماتِه القليلةَ و طلباتِه الضئيلةَ ثقيلةً على منْ سكنوا القلبَ و عشقتهُمُ الروحَ .

(٢١)

أفقتُ علي غناءٍ.

-" هلْ جلستَ العصرَ مثلي .. تحت جفْناتِ العنب و العناقيدُ تدلتْ..
كثُريَّاتِ الذهب "

صباحُ الخير.

استدرتُ لأجد" معالي" واقفةً بجواري .

- "معالي "؟ اشتقتُ إليكِ .. صباحُ الخير ..

- أحبُّ هذهِ الجِلسةَ تحتَ تكعيبةِ العنبِ، ما أجملَها!.

شدتْ إليها مقعداً، و جلستْ بجواري بهيئتِها التي تشبهُ الرجالَ، معطفٌ أكبرُ من مقاسِها، مهلهلٌ، و متربٌ و سروالٌ رجالِي بهِ الكثيرُ من القطوعِ والرقعِ، و شعرٌ قصيرٌ منفوشٌ تداريهِ عبثاً بقبعةٍ صوفيَّةٍ، وبيدِها شمسيةٌ متربةٌ تستخدمُها أحياناً للاستنادِ عليْها، ووجهٌ أغبرُ دبغتْهُ الشمسُ بتجاعيدَ مبالغٍ فيها، قد أذهبتِ الحسنَ و الملاحةَ التي كانتْ تمتلكُهما.

((إنَّ الحزنَ المتكررَ هوَ شيخوخةٌ مبكرةٌ)) *

سألتُها:.لم الغيبةُ؟؟

- ها أنا.. أسيرُ طوالَ اليومِ حتى يهدَّني التعبُ؛ فأنامُ حيثُ تتوقفُ قدرتِي على السيرِ في ركنِ حديقةٍ، أو رصيفِ شارعٍ أو أرضٍ خربةٍ.

- ألن تأتِ لتعيشي معنَا؟

- مرةً أخرى؟ ألا تيأسينَ؟ أخبرتُك.. لا أستطيعُ. عقابِي لنفسِي لنَ ينتهِ إلَّا برحمةِ

ربي و موتِي، حياتُكم هنا حلوةٌ رغمَ مرارتِها على البعضِ منكمْ.

حياتُكم هُنا مليئةٌ بالمرحِ و العطاءِ، فغلَبَ حلوُها على مرِّها، و أنا لا أستطيعُ المرحَ و زهدتْ نفسي عن العطاءِ.

لم أقرأْ تلكَ الجريدةَ اليومَ، هاتي لأعرفَ أخبارَ الدنيا!

تتابعُ أخبارَ الاقتصادِ و البورصةِ و التجارةِ، مهتمةٌ بالشؤونِ السياسيةِ، تطالعُ صفحاتِ الأدبِ و الفنِّ.

مثقفةٌ، هذه الشعثاءُ الغبراءُ كانتْ من أغنى أغنياءِ البلدةِ، عرفتُ هذا مصادفةً عندما أخبرني ابني، و شاهدتُها تضربُ الأرضَ بأقدامٍ قويةٍ، تنتعلُ حذاءً رجالياً بالياً،

(٢١)

و ملابسَ مهلهلةً كما أسلفتُ.

حيرتْني و أحزنَتني قصتُها المبتورةُ التي أخبرني بها ابني، كانتْ غنيةً للغايةِ، و فقدتْ كلَّ أملاكِها حتى البيتَ الذي تعيشُ فيهِ، وكلَّ الأملاكِ السائلةِ، و عقاراتٍ وأملاكٍ .

لقدْ حاولَ الأقاربُ و المعارفُ معاونتَها ؛ لتبدأَ من جديدٍ و تستردَّ مكانتَها التجاريةَ مرةً أخرى، ولكنَّها رفضتْ أيّ مساعدةٍ كمَا رفضتِ الإقامةَ في أيّ بيتٍ من بيوتِ أقاربِها و لو بمفردِها، و أخذتْ تجولُ في شوارعِ المدينةِ، يعطيها هذا قطعةَ خبزٍ، و تعطيها تلكَ ملابسَ .

تركتْ كل شيءٍ، و هامتْ على وجهِها، كلُّ ما كانتْ تفعلهُ يومياً هوَ قراءةُ الجريدةِ، و لم تتركْه، وهذا ما أخبرني به ابني .

ظَللتُ ألمحُها لسنواتٍ في تجوُّلِها، و يتمزقُ قلبي من بؤسِها و هوانِها، فتارةً أمامَ مطعمٍ تأكلُ شطيرةً، و تارةً تضربُ الأرضَ بقدمِها سيراً في الشوارعِ، و تُحدِّثُ نفسَها بعباراتٍ قصيرةٍ، و تارةً أراها في زاويةٍ تطالعُ الجريدةَ قبلَ أن تردَّها لبائعِ الصحفِ.

ليستْ مختلةَ العقلِ، بل مدركةً و واعيةً لما حولها و لحالها.

ومرتِ السُّنون و أنا أعجبُ لحالها، حتَّى أتتْني الجرأةُ مرةً و اقتربتُ منها، لا أعرفُ ما الذي دفعنِي لهذا، و أنا الانطوائيةُ الخجولةُ النفورةُ منَ

الناسِ؟ و كيفَ تلاشى الجدارُ الذي وضعتْه حولَها، و تحدثتْ معي على غير عادتِها طوالَ سنواتِ شقائِها، و عرفتْ ما أصابها؟ .

- " معالي هانم"..

اسمي في شهادةِ ميلادي، و ليسَ لقباً يلحقُ باسمي لمكانتي الاجتماعيةِ فقط .

عشتُ كابنةٍ وحيدةٍ لعائلةٍ عريقةٍ في النسبِ و التجارةِ والمالِ، سكنتُ بيتاً كالقصرِ. خدمٌ ، رفاهيةٌ، تعليمٌ راقٍ، و أموالٌ كثيرةٌ تتوارثُها الأجيالُ. ورِثتُ عن أبي وأجدادي الحنكةَ و الذكاءَ التجاريَّ، و هذا ما جعلَ والدي يُلحقني بالعملِ لديهِ رغمَ عدمِ احتياجي أو احتياجِه لذلكَ، وقد أبهرتُ الجميعَ بنجاحي.

تزوجتُ وعِشتُ سعيدةً، و بعدَ عدةِ أعوامِ رُزقتُ بابنتي الوحيدةِ أيضاً بعدَ عمليةٍ دقيقةٍ ناجحةٍ.

وضعتُ جُلَّ آمالي في هذهِ الابنةِ، دللتُها و ألحقتُها بأرقى دورِ العلمِ في مصرَ، و في الخارجِ، أتحتُ لها رفاهيةً بلا حدودٍ، حريةٌ و استقلالٌ، كلُّ آمالها و أحلامِها محققةٌ في الحينِ و بلا حدودٍ، و لمَ لا؟! لِمَ أحرمُها، و خيرُ الله كثيرٌ و وفيرٌ؟ .

و لمَّا ماتَ زوجي، و هيَ لا زالتْ صغيرةً، تفرغتْ كلُّ مشاعري لَها، و زادَ اهتمامِي و دلالِي لها.

و كبُرتْ و كبُرتْ آمالي فيها معَها .

(٢٢)

و يومَ أنْ أرسلتْ لي لتخبرَني بحبِّها لزميلٍ لها في جامعتِها المرموقةِ عالمياً في أُوروبا فرحتُ، و لم أهتمْ، وعندما أخبرتني أنهُ ليس مصرياًّ أكدتُ لها أن أهمَّ شيء دينَه و خلقَه، وما خِلافَ هذا لا يهمُّ، و أكدتْ لي قائلةً: مرتاحةٌ لسلوكياتِه، و أنهُ أملُ الكثيرِ من الزميلاتِ .

لمْ أُعقبْ بالبحثِ عن صحةِ هذا؛ فلقدْ ربيتُها على قاعدةِ "أنت حرٌّ ما لمْ تضرْ"، و أنَّ اللهَ قد خلقَ لنا هذهِ الأرضَ لنعمّرَها، و نعيشَ فيها، و أنه يباركُ حياتَنا ما دُمنا لا نقربُ أيَّ شيءٍ مما حرَّمَه، و أنَّنا في مجتمعٍ لهُ تقاليدُه و أعرافُه، أخبرتُها :"حبيبتي افعلي ما تشائينَ ما دامَ ليسَ حراماً أو عيْباً؛ فلكِ كاملُ الحريةِ بعد ذلك فيما تفعلينهُ، و ليسَ عليكِ لومٌ أو تثريبٌ" وافقتُ أن يأتيَ إليَّ و يخطبَها مني و منَ العائلةِ، ما المانعُ ما دامتْ ابنتي تحبُّ و ترغبُ به زوجاً؟ وفرحتُ بداخلي فسيكونُ لديَّ ابنٌ اعتمدُ عليهِ في رعايةِ ابنتي.

تزوجتِ ابنتي بعد إتمامِ دراستِها كمَا اشترطتُّ ؛ لأني أؤْمنُ بأهميةِ أن تنالَ الفتاةُ أقصى تعليمٍ و ثقافةٍ متاحةٍ ..

حياتِي كانت مليئةً بأعمالي التجاريةِ و الخيريةِ و باتصالاتِ ابنتي في تِرْحالِها مع زوجِها بينَ مصرَ و بلدهِ و كثيرٍ من بلدانِ العالمِ.

ابتعـدتْ عني كثيراً مـن الأيـامِ بجسـدِها، ولكـنَّ روحَـا و أخبارَهـا كانـتْ تحيطُني طوالَ اليومِ..

في إحدى زياراتِها لي سألتني:

- أنـتِ تـاجرةٌ مـاهرةٌ، لـمَ لا تمُـدِّينَ نشـاطَك خـارجَ البلـدِ لبلـدانٍ أُخرى؟

قلتُ لها:

- هـذا طمُوحي بلا حدودٍ، و لكنْ الفرصةَ لم تُتَحْ لي ؛ لأُفكِّرَ في هذا أو أنفذَه .

حكتْ لي عن بلدِ زوجِها، و أنها عطشَى لنوعيةِ تجارتِي، و سنربحُ الكثيرَ، و بعدَ ذلكَ ننتشرُ في بلدانٍ أخرى .

استطاعتْ أن تثيرَ شـهيَّتِي التجاريـةَ، وتُحبِّبَ المغـامرةَ لنفسِي، كمـا أني سعدتُّ أن جينات عائلتِي التجاريةِ قد ظهرتْ بوادرُها أخيراً عندها .

سهَّلتْ لي كلَّ شيءٍ، وقالتْ:

سنُنْشـأُ في البدايـةِ فرعـاً لشـركتِي في بلـدِ زوجِهـا بنفـوذِ عائلتـهِ التي سـتحِلُّ لنا كثيراً من العقباتِ .

نريدُ أن تأتيَ معنا من أجلِ الأوراقِ الرسميةِ.

هـالتْني الفترةُ الزمنيـةُ التي أحتـاجُ إليهـا للسـفرِ كي أُنهيَ فيهَـا المعـاملاتِ.

اعترضتُّ؛ فنحنُ في موسمٍ تجاريٍّ سنويٍّ خطيرٍالآنَ، ولا أستطيعُ أن أتركَ شركتي أبداً في هذا التوقيتِ، و هي تعرفُ هذا .

و أوشكتُ على إلغاءِ الفكرةِ من رأسي مؤقتاً؛ فلا أريدُ أنْ أعطِّلَ عملا و ربحاً مضموناً هنا من أجلِ اللهثِ وراءِ أوراقِ تأسيسِ شركةٍ في بلدٍ غريبٍ .

(٢٣)

احتمالاتُ فشلِها يفوقُ احتمالاتِ النجاحِ ؛لعدمِ درايتي باقتصادها، و لأني لمْ أدرسِ الموضوعَ بعد، و لكنَّها ألحتْ أنَّ هذَا هوَ الوقتُ المناسبُ في بلدِ زوجِها، و هيَ فرصةٌ لن تُتاحَ إلا بعدَ عامٍ إن أُتيحتْ.
و قالتْ لا داعيَ لسفرِي الآن لأوقاتٍ طويلةٍ؛ فلا بُدَّ أن أقوم بعمل توكيلٍ لها ؛ لتتابعَ معاملاتِ تأسيسِ الشركةِ ؛ ولأسافرَ أنا يوما أو بعضَ يومٍ إنِ احتاجَ إليَّ الأمرُ هناكَ و أُتابعُ معها عبرَ الهاتفِ أيَّ تطورٍ.

و من هُنا بدأتْ مأساتِي.
ابنتي الوحيدةُ انتهزتْ ثقتي بها و انشغالي، و كانَ التوكيلُ يتِيحُ لها كلَّ شيءٍ بغفلةٍ منِّي ؛ فنقلتْ كل أملاكي باسمها بيعاً و شراءً، و سحبتْ كلَّ أرصدتِي البنكيةِ، و قامتْ ببعضِ الألعابِ القانونيةِ بتدويرِ ملكيتِي بينَها وبينَ زوجِها بطرقٍ قد حارَ عقلي في فهمِها من محاميّ .
الخُلاصةُ: لم يعدْ لديَّ إلا الملابسُ التي أرتديها، لا تسأليني كيف؟ هي حِيَلٌ و ثغراتٌ قانونيةٌ دقيقةٌ جداً لا تجعلُ لي حقاً في أيِّ شيءٍ، ولا حقَّ لي في استردادِ أيِّ شيءٍ؛ لأنَّ كلَّ شيء قدْ تمَّ بمهارةٍ شديدةٍ، و تكتُّمٍ، و انتقلت ممتلكاتِي من اسمٍ لاسمٍ، و أنا لاهيةٌ في أعمالي حتى تمَّ الأمرُ،

وأُمِنـوا مـن أيِّ ثغـرةٍ تجعلُني أشـعُرُ بمـا يحـدثُ، أو تجعـلُ لي الحـقَّ في الشكوى.
وفُوجِئْتُ بإخطارٍ أن لا أدخلَ شركتي أو بيتي، أو أي أملاكٍ لي، و فُوجئتُ بـأنَّ كـلَّ إخطـاراتِ البنـوكِ كانـتْ مخبـأةً؛ حتى لا أعـرِفَ مـا يحـدثُ.
و كما اختفتْ ثروتي اختفتْ ابنتي و زوجها، و تغيرتِ الهواتفُ، و العناوينُ، و لا أعرفُ عنهُما شيئاً .
عِنـدمَا علمـتُ صُـدمْتُ، و رفضـتُّ أيَّ نصـائحَ بالشـكوى، أأشـكو ابنتي؟ وماذا سآخذُ من هذا؟
الإجابـةُ: لـن آخـذ شـيئاً، وسـتكونُ فضـيحةً لابنتي، و للعائلـةِ و خـذلاناً لنفسي .
الكلُّ اهتمَّ بالشركةِ و العقاراتِ و الأموالِ، لقد كان اهتمامي لماذا فعلتْ ابنتي هذا؟!
لقد ربيتُها على القيمِ الدينيَّةِ الصحيحةِ و الأخلاق والأعرافِ، و لم أبخلْ عليْها باهتمامٍ أو بعلمٍ أو بمالٍ، كانتْ حرةً، و لكن بحدودٍ، حدود تربيتُ أنا عليْها و نقلتُها إليها قولاً و عملاً، أين الخطأُ؟
تركتُ كلَّ شيء، و همتُ بالشوارعِ عقاباً لنفسي. لِمَ؟ لأنِّي ربيْتُ ابنتي و كبَّرتُ بداخلِها هذا الوحشَ الجشعَ .
عندمَا أفكرُ في أي ثغرةٍ في تربيتي أجدُ أنى لم أُخطئْ .

هل أخطأتُ عندما دللتُها كما تدللتُ أنا؟ جعلتُ لها كلَّ شيء مباحاً، ولم أراقبْها،
و تركتُ ضميرَها و دينَها يكونُ رقيباً عليها؟
كنتُ أظنُّ أنَّ هذا صحيحاً، هكذا تربيْتُ، حرةٌ، طليقةٌ، تدللتُ، وكانتْ لي الدُّنيا، وكنتُ أدركُ أن حريَّتي هذهِ مسؤوليةٌ.

(٢٤)

لمْ أستغل - أبدا- أيَّ طريقٍ للحريةِ قد فتحهُ لي أبي و أمي، وكنتُ أضعُ حدوداً لنفسي و أقولُ لها : افعلي كلَّ ما تريدين ما دامَ لا حراماً ولا عيباً.
هكذا ربتْني أمي و هكذا ربيتُ ابنتي، أين الخطأُ؟ سأُجنُّ، نفسُ الفكرِ، نفسُ الحرياتِ، نفسُ الدلالِ و الإمكانياتِ، نفسُ الحدودِ و التقاليدِ.
كنتُ ساعدَ والدي و سندَهُ في عملهِ و في حياتهِ، بارةً به حتَّى آخرِ أيام عمرهِ و أمي.

كنتُ مصدرَ فخرٍ لكلِّ من عرفني حتى منافسيَّ في السوقِ يحملونَ لي احترام شديدٌ مع الحذرِ من ذكائي و استقامتي و خبطاتي الذكيةٌ في السوقِ تبعاً لتقاليدِ التجارةِ، و العرف التي لم أخرج عنهما أبداً .
ربيتُ، و تعبتُ، و دللتُ، و غرستُ الأخلاقَ، و القيمَ في نفسِها، صادقتُها، و كانت ابنتي و أختي و صديقتي، ثم أطلقتُ لها الحبلَ على الغاربِ.
((لاعبْه لسبعٍ، و أدِّبْه لسبعٍ، وصاحبْه لسبعٍ، ثم أطلقْ لهُ الحبلَ على الغاربِ))
هذه هي الأسس الصحيحةُ التي اتبعتها.
لم أستطِعْ على ما يشهدُهُ لي الناسُ بالذكاءِ و الفطنةِ أن أعرفَ كيفَ حدثَ هذا؟

لم أجرُؤْ أن أتهمَ ابنتي بأنَّ نفسَها شقيةٌ خبيثةٌ لا يصلحُ معها تربيةٌ أو إصلاحٌ؛ لأني رأيتُ و خبرتُ أخلاقَها و حنوَّها لسنواتِ.

هذه الطفلةُ الحبيبةُ ليستْ كما قد تبدو الآن أمام الناسِ و أمامَ قلبي أحيانا.

هذه الصورةُ المشوهةُ البائسةُ ليستْ ابنتي، طبْعُ الخُبثِ ليسَ فيها أصيلا، لا بُد أن أعرفَ.

و استقرَّ رأيي أن هذا ابتلاءٌ من اللهِ لذنبٍ اقترفته، وغفلتُ عنهُ و لم أنتبهْ أو لعلي نسيته، لن أفكر، لن أدينَ، سأتركُ كل شيء تكفيراً لذنبٍ لا أعرفُه.

حاولتْ عائلتِي و كلُّ معارفِي أن أبدأَ من جديدٍ.

وكانتْ كلُّ المناقشاتِ لا تخرجُ عن الحوارِ التالي:

- خذي قروضاً، سمعتُك فقط تكفِي، ستعودينَ مليونيرةً في بضعِ سنينَ.

- شاركينا، أنتِ مكسبٌ، و جائزةٌ كبرى لمنْ يمدُّ يدَه و يشاركُكَ .

- سنُخصِّصُ لكِ معاشاً شهرياً و سكناً.

- لا ننسى أخلاقَك، و عملَكِ الخيري للقريبِ و البعيدِ.. أنتِ دمُّنا و لحمُنا

رفضتُّ كلَّ شيء، حتى أن أعملَ بوظيفةٍ لأحفظَ بها ماءَ وجهي.

- أيُّ دمٍ و أيُّ لحمٍ؟ لقدْ نسيتُ الأحاسيسَ و المشاعرَ، قطعتُ جميعَ شراييني.

- الدنيا بخيرٍ يا معالي هانم.. خيرُك سابقٌ.

رفضتُّ وأخذتُ قراري حكمتُ على نفسي بعقابٍ "سيزيف": أعيشُ عذاباً أبدياًّ حتى تتداركني رحمةُ اللهُ.

لا بُدَّ أن أَكسرَ هذه النفسَ حتى تكفِّرَ عن خطأ لا أعلمُ ارتكبتْه أمْ لا .

(٢٥)

سأجُولُ في مدينتِي التي تعرفني ولا يجْهلُ أحدٌ بها قصتِي، و ما كنتُ و ماأصبحتُ. أرى بيتَ أبي و أجدادي، و قد احتلها من اشتراها، شركتِي التي أفنى أبي و جدي فيها العمرَ في يدِ غيري تعلو أسهمُها أو تهبطُ .لا أبالي.

هذه الشوارعُ و البيوتُ التي عرفتُ، و شاهدتُ مجدي و عزي فلتُشاهدْ ذلِّي وأنا أستجدي شطيرةً من هنا أسدُّ بها رمَقي، أو كوباً من الشاي أسكِّنُ به صداعاً قد ألمَّلم بي، وبائعُ الصحفِ الذي يُشفقُ عليَّ، و يعيرُني الجريدةَ يومياً ؛لأقرأَها ثمَّ أعيدَها له، و ملابسُ أجدُها حيثُ وضعتْها يدٌ رأفتْ لحالي أو أستخرجُها من قماماتِ الناسِ، ونومي على الأرصفةِ أو الحدائقِ العامةِ .

لا أرتدي سوى زيِّ الرجالِ الخشنِ المهلهلِ، أمَّا مّا يصلحُ ويكادُ يكونُ جديدَ فأعطيه لمنْ هوِ أحقُّ مني بالحياة، و ما أكثرُهم . محتاجين و تأبى كرامتُهم أن يمدوا اليدَ .أعرفهم .

فكمْ عرفتُ في غناي من عائلاتٍ مستورةٍ بفضلِ الله، و تعيشُ على ما تجودُ به أيدي الخيرِ في السرِّ. حتى أنَّهم في أوقاتٍ كثيرةٍ لا يعرفوا من وضعَ أمام أبوابهم هذه الخيراتِ .

اعتقدَ بعضُ أقاربي أن تحسسَهمْ لأخبارِ ابنتي قد يعودُ عليَّ بالنفعِ، و استعملوا اتصالاتَهم و نفوذَهم؛ لتتبُّعِ أخبارِها و زوجِها، و آتى منْ يخبرُني أن ابنتي قد خسِرتْ هيَ و زوجُها خلالَ أربعةِ أعوامٍ فحسبْ كلَّ ما أخذوه مني، و هربوا من الدائنينَ إلى حيثُ لا يعلمُ أحدٌ، و ليسَ هذا فحسب، بلْ عرفوا أن زوجها ابن العائلةِ الكبيرةِ بدَّدَ ثروتَه قبلَ هذا، و كانت له فضائحٌ ماليةٌ، واختلاسُ أموالٍ و سرقاتٌ كثيرةٌ قبلَ أن يتزوجَ ابنتي . و لكنَّ عائلتَه كانتْ تسارعُ لتسويةِ هذه الأمور قبل أن تفوحَ رائحتُها و تُعرفُ؛ حفاظاً على سمعةِ عائلةٍ لطالما اشتهرتْ في محيطِها بالشرفِ و الأخلاق .

و اشتعلت النارُ في قلبي أكثرُ، هل استطاع زوجُها رفيقُ السوءِ هذا أن يهدمَ على مرِّ شهورٍ و أعوامٍ قليلةٍ ما غرستُهُ في نفسِها الطيبةِ من دينٍ و قيمٍ و أخلاق؟

أبْني لسنواتٍ عدةٍ، و أغرسُ، و أروي أشجارَ الأخلاق داخلَ نفسِها منَ الصغر، ويأتي هذا؛ ليقتلعَها من جذورِها، و يحولَها لوحشٍ يهدمُ أمهُ؟

زادَ ألمي عكسَ ما تخيلَ قريبي الذي نقل إليَّ أخبارها لقد تركتُ كلَّ شيءٍ، و قلت: فلتهنأْ بالمالِ، فهو مالُها وإن لم تأخذْه الآنَ كانتْ ستأخذُه بعدَ وفاتي .

فلتهنأْ به في حياتي أفضل رغم أني لم أبخلْ عليها أبداً، سامحتُها، لن أشكوَ، و عندمَا يغضبُ قلبي و لو لبرهةٍ أستغفرُ مخافةَ أن ينتقمَ منها اللهُ، و هذا ما أخشاهُ.

سامحتُها، و أرجو أن تسامحَني إن قصرتُ يوماً، و أخطأت، و تركتُها لرفيقِ السوءِ هذا.

ما فعلتْهُ لا ذنبَ لها فيهِ، لقد أحبت الشخصَ الخطأَ، و تركتْ لهُ أن يسوقَها كيفمَا شاءَ.

ما فعلتْه بي لا ذنبَ لها فيهِ .

ماذا تعرفُ هذهِ الطفلةُ من الأذى لتُؤذيَني ، إنها هي طفلتي و ملاكي .

و زادَ ألمي، و كلما ذهبَ تفكيري لمَا حدثَ، و أُحسُّ بتعاظمِ الألمِ آخذُ نفسِي و أسيرُ ضرْباً الأرضِ حتى يتعبَ جسدي، و أسلِّمَ جسمي للأرضِ أفترشُها، و تزيدُ الأفكارُ من تعبي و إنهاكي، و لو طالعتْني الأفكارُ في منامي أعافُ النومَ .

(٢٦)

هو عذابٌ أبديٌّ، وعسى اللهُ أن يعفوَ به عنِّي يومَ القيامةِ.
هكذا أوجزتْ لي معالي حكايةَ عمرِها.
و تصادقْتُ و معالي على الرغمِ من قلةِ اللقاءِ، و قلة كلماتِنا المتبادلةِ بعدَ حديثِها المفاجئِ الطويلِ معي، كنا نتفاهمُ بكلماتٍ قليلةٍ أو حتَّى بالنظراتِ، وأتيتُ هنا للدارِ . و حاولتُ كثيراً أن أقنعَها أن تلحقَ بي، ولكنها رفضتْ بشكلٍ قاطعٍ، و كانتْ تأتي كلَّ حينٍ لزيارتي، ثم تعودُ لرحلةِ "سيزيف" التي ألزمت بها نفسَها باقي العمرِ .
أفقتُ على يدِها و صياحِها بي:
- أليسَ لديكِ عملٌ ما؟ فرغتُ من الجريدةِ و أنتِ لا تزالينَ جالسةً بجواري شاردةً.
ليستْ من عادتِكِ أن تجلسي بلا حركةٍ ساعتيْن في نفسِ المكانِ، و بدون عمل!
- شرد فكري يا معالي، أين أنا منكِ؟ هل أبكي، وأشتكي، و ينزِفُ قلبي وأنا مَن تركتُ الدنيا و هي لم تتركْني؟ لمْ ألاقِ منها مقدارَ ما لاقيتِ أنتِ من غدر وجحودٍ، ورُغم ذلكَ يتسلَّلُ الحزنُ لقلبي، و يعتصرُني الألمُ، و أندم أحياناً على حياةٍ كنتُ أتمناها غيرَ ما هيَ عليهِ الآنَ .

لقدِ اخترتُ نهايةَ حياتي بطريقةٍ مختلفةٍ عمَّا اخترتِه أنتِ، اخترتُ أن أَسعد، و أن أحاولَ ألا أحزنَ؛ لأنَّ لي في الحياةِ أبناء يحبوني للحدِّ الذي يجعلُهم يتمنوْا حملَ الحزنِ عنِّي بدلاً مِنْ أنْ يروْني حزينةً .

حملتُ حزنِي، و دفنتُه، و زرعتُ حولَ قبرِهِ أشجارٌ ورودٌ من السعادةِ و الخيرِ و العطاءِ، و اخترت أنتِ يا صديقتي أن تُخرِجي كلَّ الحزنِ و الألمِ ، و تجعلينه حصواتٍ تتعثرين بها تحت أقدامكِ و أنتِ تجوبين شوارعَ مدينتِنا .

هذه المقولةُ التي طالعتُها في كتابٍ كانَ مُرْشِدِي:{لا شيءَ يمنعُ تقلباتِ الأيامِ، فليستْ هناكَ تعويذةٌ تحميكِ منْ صدماتِ الحياةِ و تقلباتِها، و لكنَّ التوجهَ الإيجابيَّ سيمكنُك من معرفةِ أن كلَّ ذلكَ جزءٌ من الحياِة، و التعلمُ من الأحزانِ و الأخطاءِ و العقباتِ هو سرُّ التعافي و معرفةِ أن لديْك نقاطَ قوةٍ، و جَلَدٍ لمواصلةِ المشوار} *

شتَّانَ ما بيْننا رُغم تقاربِ قلوبِنا و عقولِنا .

من لها قلبك كيفَ تتعذبُ هكذا؟

- سلامٌ. سأرحلُ الآنَ و أزورُك بعدَ أيامٍ .

سمعتُها تُغني بصوتٍ خافتٍ وهى تتركني" ما خطرتش على بالك يوم . تسأل عنى؟" و أتساءلُ أيضاً مع أم كلثوم و معها : ألمْ تخطُرْ على فكرِ ابنتِها؟

بمَا تشعرُ الابنةُ بعد مرورِ هذه السنينَ؟ كيفَ طوَّعتْ لها نفسُها أن تجرِّدَ أمَّها من كلِّ ممتلكاتِها؟! أكانتْ واثقةً من براعةِ أمِّها التجارية، و سمعتِها، و أنها تستطيعُ أن تستعيدَ أضعافَ ما سلبتْهُ منها؟ ألمْ تحاولْ أن تعرفَ ماذا حدثَ لها؟ كلُّ المدينةِ تعرفُ حكايةَ معالي، فكيفَ لا تعرفُ جلادتُها؟ هي قدْ تركتْ البلدَ كلَّها، و لكنْ ألَا تحاولُ أن تطمئِنَّ على أحوالِ فريستِها؟ ألَا يحِنُّ قلبُها لحضنِ الأمِ؟ أتخشى أن تعافها أمها؟؟

----

*سوهاد فيلد .

(٢٧)

حنَ القريبُ و الغريبُ على معالي، و لكنَّ القلبَ الذي تنشدُ حنانَه قُدَّ من حجرٍ .

قد مرَّ على زلزالِ حياةِ معالي ثلاثٌ وعشرونَ سنةً، ألمْ تصِلْ أخبارُها لتلكَ الأذنِ الصماءِ؟ ألَا تعرفُ بتجوالِ أمِّها في زمهريرِ البردِ و حريقِ الصيفِ؟ ألم تخبرْها دماءُ أمِّها التي تجري في عروقِها أن صاحبةَ هذه الدماءِ تذِلُّ نفسَها، و تمدُّ يدَها لتناولِ ما لَا يكادُ يسُدُّ رَمَقَها عقاباً لذنبٍ لم ترتكبْه . ألَا تدركُ أنَّ هذهِ الأمُّ بغضتْ الدنيا بعدَ رحيلِها عنها؟ حاولتُ كثيراً معَ معالي أن تلتحقَ بالدارِ، و لو أرادتْ الحصولَ على عملٍ فمنَ الممكنِ أن تمسكَ حساباتِ الدارِ، أو تقيمَ بالمجانِ، أو أتكفلَ أنا بإقامتِها ؛ حتى تعملَ، و تعيشَ، و تستأنسَ بنا .

و رفضتْ .

وكانَ ردُّها:

- أرفضُ الراحةَ ؛فلمْ أكفِّرُ بعدُ عن خطيئَتِي، لقدْ تركتُ ابنتي لرفيقِ السوءِ.

لا تقلقي يا سلوان! عندما تعجزُ قدماي عنْ حُملِي بطولِ الشوارعِ و الطرقاتِ، سأعرفُ أنَّ اللهَ قدْ أذِنَ لي بالراحةِ، و لنْ أجدَ أحنَّ من قلوبِكم هُنا لترعى آخرَ دقاتِ قلبي .

شاهدتُها - منذُ يومينِ و أنا في طريقي بالسيارةِ لقضاءِ مصلحةٍ ما- تقرأُ الجريدةَ، و تتعرفُ على أخبارِ دنيا أدارتْ لها ظهرَها .
كمْ من أشخاصٍ مثلِ معالي في الطُّرقاتِ، ولا ندري ما بهم .

كمْ جزِعتُ لشيخٍ مسنٍّ يجرجرُ أقدامهُ، يحملُ أكياساً بمتطلباتِه، ودوائِه من الأسواق لا يكادُ يقدرُ على التقاطِ أنفاسهِ، وكم تساءلْتُ أليسَ له مَنْ يقضي حاجاتِه؟ ألَا يجِدُّ من يرحمُهُ من عثراتِ الطريقِ؟

وكمْ عجِبتُ لسيدةٍ تعملُ بالبيوتِ وهى في السبعينَ من عمرها نحيفةً عجفاءَ، ولا ترغبُ إلا بأخذِ أجرِها على عملِها، وترفضُ أيَّ صدقةٍ، أو معونةٍ بكل إباءٍ وشَمَمٍ، وعلمتُ أنها تعملُ- ولا بُدَّ أن تعملَ يومياًّ؛ لتنفقَ على ابنٍ مريضٍ عاجزٍ أن يكفُلَ نفسَه وأمهُ- في هذا العمرِ، وها هيَ سيدةٌ تجلسُ في طرفِ السوقِ تمدُّ على استحياءٍ يداً مرتعشةً معروقةً تعِبةً، وتلتقِطُ بضعةَ جنيهاتٍ تكفِي طعامَها، وتمشي مستندةً على قطعةٍ خشبيةٍ حتى تذهبَ لحالِها.

وتلكَ تحملُ كيساً، ويعرفُها الباعةُ، تأخذُ من هذا قطعةَ خبزٍ، والآخر ثمرةَ خُضارٍ أو فاكهة، ويخبرُني البائعُ : لا تأخذُ أموالاً، ولكنها تأخذُ فحسب ما يطعمُها ليوْميْنِ وتعودُ.

قفزَ قلبي من مكانِهِ وأنا أمشي بجوارِ مسجدٍ، ورجلٍ يُحرِّكُ قدميْه بصعوبةٍ بالغةٍ، وجسدُهُ كلُّهُ يرتعشُ واضعاً رأسَهُ على جدارِ المسجدِ قائلاً بهمسٍ : يا ربّ! أنا جائعٌ.

(٢٨)

كيفَ كانَ كلٌّ منهمْ قبلَ سنواتٍ؟ هذهِ التجاعيدُ، وهذهِ الأعضاءُ المرتعشةُ كانتْ قوةٍ، وشباباً، وطموحاً، وعنفواناً، كانت حركةً وعملاً، وأحلاماً و أمنياتٍ، والآن!!!!!!!!!!

((شهر وشهير والثاني قصير)) مثلٌ سمِعتُه قديماً، يعنى :أنَّ الأيامَ تدورُ سريعاً، وما كانَ لنْ يستمرَ طويلاً، وكمْ جزعْتُ من هذا .

أيكونُ حالي -بعدَ ما أنا بهِ الآنَ- هواناً مثلَ ما رأيتُ؟ ضعفٌ، وذُلٌ، وحاجةٌ؟

لن ألقىَ اللومَ كمَا يفعلُ الغافلُ على تدنِّي المستوى الاقتصاديَّ. بكلِّ اختصارٍ هوَ سقوطٌ في المستوى الأخلاقي، و الاجتماعيِّ .

أينَ الأهلُ؟! لا أحدَ مقطوعٌ تماماُ، أينَ التراحمُ؟! أينَ صلةُ الرحمِ؟! أينَ الأبناءُ؟! أينَ حقُّ الجارِ؟! أينَ الدينُ؟!

الغافلُ- فقط -من لا يدركُ أنهُ يستطيعُ أن يتَّقِ النارَ ولوْ بشقِّ تمرةٍ .

الكبيرُ منَّا لا يحتاجُ سوى الاحترامِ، والتقديرِ، وبعضِ أشياءٍ بسيطةٍ نُكمِلُ بها أيامَنا بكرامةٍ.

(٢٩)
مِرْآةٌ ثالِثةٌ

اشــتدتِ الضوضــاءُ داخــلَ مبنى الــدارِ، معلنــةً وصــولَ تلميــذاتِي مــن اليتيماتِ.

حملـتُ حقيبتِي تاركـةً الحديقـةَ، ودخلـتُ إلى مشـغلِي فوجـدتُّ "فـهميـة " رفيقَتي في تعليمِ التطريزِ، والأشغالِ اليدويَّةِ للبناتِ قد سبقتنِي إليهِ، إنَّهُا أجملُ أوقاتِ يومي الحافلِ الجميلِ .

اسـتدارتْ لي "فـهميـة " قـائلـةً: أتيـتِ؟ يـا الله! الأطفـالُ نعمـةٌ، مـا شـاءَ اللهُ تسعةُ أقمارٍ، أحمدُك يا ربّ على هذه النعمةِ.

بناتِي حبيباتِي!

هذهِ – تقريبًاً - مقدمةُ "فهمية " دائماً في أيَّامِ دروسِنا المشتركةِ، وتلهَجُ كلَّ ساعةٍ بالدعاءِ، والحمدِ، والشكرِ .

" فهمية" صديقةٌ من "سوريَّا "، اختارتِ العيشَ بمصرَ.

تأملتُ حنوَّها على الأطفالِ، وتعامِلُهم كأمٍّ، وترْعَى حالَهمْ، ليسَ- فقط- في الـدرسِ و التعلـيمِ، وَلكـنْ حتَّى وهُـمْ فِي مبنـاهُم المجـاورِ لـدارِنا، تهـتمُّ بملابِسـهم، وتعلـيمِهم، وكلِّ شـؤونِ حيـاتِهم .. أرشـدتْ طالبـاتِي لـدروسِ اليـومِ، وجلسـتْ تتـداعى ذكريـاتِي بحكايَتِهـا كمَـا أخبرتْنِي يومـاً، اسـمعوها معي ..

- " أبو فهمي" ابنُ عمي، وحبيبي، وزوجي زَيْنُ شبابِ العائلةِ، معلمٌ نابهٌ، كلُّ شيءٍ في حياتِنا ترتَّبَ منذُ ولادتِي، ويتمُّ تعليمُه، و ينتظرُ حتَّى أبلغَ السابعةَ عشرَ و نتزوجُ ببيتِ العائلةِ.

آه! ما شممتِ يوماً ياسمينَ الشامِ؟؟ واللهِ قد فاتَكِ نصفُ عمرِكِ .. بيوتُنا جنةٌ، شجرُ الحامضِ، النافورةُ في وسطِ ساحةِ البيتِ، جلساتُ النساءِ في الصباحِ، تحضيرُ الكبةِ، و الكبيس، ومؤنة البيتِ.

" ابنُ عمي أبو فهمي " واعٍ مثقفٌ يكبرُني بعشرِ سنواتٍ ..

لمَّا تزوَّجْنا وأنا بالبكالوريا أصرَّ أن أُتِمَّ تعليمِي حتى صرتُ معلمةً .

حياتُنا كانتْ فرحاً، وسعادةً، رُغْمَ مقاومةِ "عمِّي " لموضوعِ إكمالِ تعليمِي، يقولُ: هذا ما يؤخِّر وصولَ أحفادِهِ.

أسمعُهُ يُحادثُ " ابنَ عمي" :

- خلها ترتاح. أُريدُ أحفاداً، أي جامعةٍ ومواصلاتٍ، وسهرٍ بالدراسةِ، كيفَ يتحملُ جسدُها النحيلُ حملاً، وولادةً؟

يضحكُ "ابنُ عمى "، ويردُّ:

- صغيرةٌ يا أبي ؛ لم تنتهِ منَ الدراسةِ بعدُ .

- يصيرُ خيراً.

" زوجةُ عمي " كانتْ تنتحي لي و تسألني هامسةً مترقبةً خبراً يسعدُها. وأردُّ عليْها: لمْ يأذنِ اللهُ بعدُ .

(٣٠)

وأسمعُ همساتِها مع أمّي، والجيرانِ، وأهربُ من نظراتِهنَّ، وهمساتِهنَّ، وأطردُ خوفَ قلبي بتذكرِ حنوِ ابنِ عمي، وحبِّهِ لي، وترتَسمُ ابتسامةُ الرِّضا، والسعادةِ على وجهي.

وبمجردِ أن يُغلقَ علينا بابُ حجرتِنا نرتمي في أحضانِ بعضِنا، نُطمئِنُ قلوبَنا، ونحاولُ إيقافَ ارتعاشاتِ فزعِنا.

كُنَّا نُخفِي لسنواتٍ ألماً رهيباً يومياًّ عندَ سماعِنا هذا الكلامِ، ويقولُ لي:

- سيُفتضحُ الأمرُ، سيعرفون أن لا أملَ في الأحفادِ، كيفَ أواجهُ أبِي بأنِّي عقيمٌ؟ أنا بِكرُ أولادِه، ويعلِّقُ عليَّ آمالاً كبيرةً منها: كثرةُ الأحفادِ الذينَ يمثِّلون عزوةً وفخراً للبيتِ، والعائلةِ .

أُطبطب على قلبِه قائلةً.

- اللهُ كبيرٌ، ورحيمٌ.

حتى أتى يومٌ ووجدتُ عمِّي يقفُ أمامَ بابِ غرفَتِي .

- لا دراسةَ، أريدُ أحفاداً، ماذا ستفعلينَ بالشهادةِ والتدريسِ؟ لديْنا المالُ، و عزُّ النسبِ، و الثروةُ، وكلُّ شيءٍ، لا أريدُ منكِ سوى الأحفادِ، أنا وأبوكِ – أخي - قدِ اتفقنا على ذلكَ، اذهبوا للأطباءِ، أريدُ أولَ حفيدٍ قبلَ نهايةِ هذا العامِ، أربعُ سنواتٍ مضتْ وأنا أُصبِّرُ حالِي، وأقولُ : بنتُ أخي ابنتِي لِتُدَلَّلْ، وإنْ كانتْ تحبُّ الدراسةَ، فلتدرسْ و لكنَّكِ تحرمينِي منَ الأحفادِ؟

واللهِ لـولا أنكِ ابنتِي، وتربيَـةُ يـدِي، ولـولا خـاطرُكِ، و خـاطرُ أخي ؛ لزوَّجْتُ ابني اليومَ .

شعُرْتُ بالرُّعبِ عندمَا شاهدتُ ابنَ عمي وقد اسودَّ واربدَّ وجهُه الأشقرُ الباهي، وهو خارجٌ من غرفتِنا يترنَّحُ:

- لا يا أبي! .

أسرعْتُ لعمي ؛لأُقبِّلَ قدمَه .

- عمِّي! أنا عاقرٌ، قد ذهبنَا للأطباءِ، وقالُوا: أنَّ العلاجَ سيطولُ، ولمْ نرغبْ في إخبارِكَ حتى لا تتألمَ، أنا ابنتُك كما تقولُ، ألَا تعطيني فرصةً حتى أُكمِلَ علاجي؟ أنا راضيةٌ بحكمك، واللهِ لوْ قلتَ لي: اذهبي لتَخطُبي لابنِ عمِّكِ، سأطيعُك .

انحنَى عمِّي، ورفعنِي في أحضانِه قائلاً:

- لا تبكِ يا بنتِي، والله قلبِي لا يتحملُ بكائَك، باللهِ عليكِ لا تبكِي، كيفَ ما تقولينَ؟ كيفَ تُخفِي هذا وتتحملين؟

هذا قضاءُ اللهِ، نصبرُ ومنهُ الفرجُ، اللهُ يرضى عنكَ يا بُنيِّ! خذْ زوجتَك، و وصلها، لا إلهَ إلا اللهُ، اللهُ كبيرٌ .

طوالَ طريقِنا للأتوبيس - فنحنُ في قريةٍ بجوارِ المدينةِ التي بهَا جامعَتي- و " أبو فهمي " يلومُني .

- كيفَ تتهمينَ نفسَكِ بأنكِ عاقرٌ؟! لِمَ لمْ تُخبريهِ بالحقيقةِ؟

- نحنُ بقريةٍ، وأنتَ الولدُ البكرُ فخرُ، وعزُّ عمِّي، ماذا أقولُ له؟

(٣١)

لقدِ اتفقنَا أن نُخفيَ هذا الخبرَ، ونسعى وراءَ الأطباءِ حتى نجدَ علاجاً، لنْ أتحملَ أن تَنْطَفِئَ فرحةُ عمي وأملُهُ في الأحفادِ، ولنْ أتحمَّلَ كسرتَكِ أمَامَهُ، العلمُ يتقدمُ، وسنجدُ علاجاً بإذنِ اللهِ .

واللهِ ما أعرفُ هل تضاعفَ حبُّ ابنِ عمّي لي أمْ أنَّهُ منْ يومِهِ وهوَ بهذَا الكبرِ ؟ عشْنَا سعداءَ إلا منْ أسئلةٍ تظلُّ تَطِلُّ منَ العيونِ تنتظرُ خبرَ خيرٍ.
تخرجتُ منَ الجامعةِ، وعُيِّنتُ معلمةً معَ ابنِ عمّي في مدرسةِ قريتِنا .
كانتِ العيونُ تحاصرُنا، وضاقَ ابنُ عمي بتلميحاتِ الأهلِ ، والناسِ بأن يتزوجَ، و يأتيَ بالذريةِ، وإنَّ مكانَتي لنْ تتأثرَ؛ فأنا ابنةُ البيتِ، وسيدتُه بعدَ زوجةِ عمّي .

وبالطبعِ رفضَ " أبو فهمي". هكذا عادةُ قريتِنا أن أُطْلقَ عليهِ اللقبَ من قبلِ الزواجِ تيمُّنًا بأنَّ أولَ ذريَّتِهِ يكونُ ذكراً، و يسميِّهِ " فهمي " كاسمِ والدِهِ، هكذا عادتُنا بسوريَّا.
مضتْ سنواتٌ ، وما بقِيَ عندَ عمِي صبرٌ باقٍ أولادُه الذكورُ ما زالوا صغاراً، وما تصيرُ الفرحةُ بأحفادٍ إلا منَ الذكورِ منَ الأبناءِ ؛ فأحفادُه منْ بناتِه يُنسبونَ لعائلةِ أبيهِمْ.

جاءني أبو فهمي يوماً يقولُ لي : السعوديةُ تطلبُ إعارةَ مدرسينَ لهَا، قدَّمْتُ فيهَا، و جاءتِ الموافقةُ، سنقومُ بكلِّ الأوراقِ في سريَّةٍ؛ لأنَّكِ سترافقيني، لنْ نُخبرَ أحداً إلا يومَ السفرِ، لنْ أتَحمَّلَ بركانَ غضبِ أبي و العائلةِ، و لنْ أتحملَ تحمُّلَك للذُّلِّ، و المهانةِ، والكلماتِ الجارحةِ، و نعتَك في عيونِ الناسِ بالعاقرِ، كفاكِ تحمُّلاً .

واللهِ وقفَ قلبِي، أأتركُ القريةَ؟ بيتُ أهلِي؟ أينَ نذهبُ؟ ألَا أُطِلُّ على أُمِّي كلَّ يومٍ و أنَا ذاهبةٌ للمدرسةِ ؛لأُصبِّحَ عليها؟ ألَا نتسامرُ يومياً فوقَ سطحِ البيتِ؛ فبيوتُنا متلاصقةٌ؟ .

لكنَّ "أبا فهمي " قد قررَ، وقالَ : "لو ما بتكوني معي أذهبُ بمفردي" .

و اللهِ قلبِي يرتجفُ، و يرتعشُ جسمِي كُلمَا تذكرتُ بركانَ غضبِ عمِّي، و بكاءَ أمِّي، و أبى، و أخوَتي و نظراتِ عدمِ الفَهمِ منْ أبِي .

ثارتْ ثائِرةُ عمِّى، ووجدتُ " أبا فهمي " لأولِ مرةٍ يقفُ بصلابةٍ أمامَ أبيهِ.

- انتهى الأمرُ يا أبي، الأتوبيسُ سيوصِّلُنا في الفجرِ، و الطائرةُ قبلَ الظهرِ، ارضَ علينا يا أبى، سنكونُ في غربةٍ، ألَا تريدُ الأحفادَ؟ سنجدُ العلاجَ، ونعودُ لكَ بالحفيدِ .

لمْ يقتنعْ عمي، و لمْ تهدأْ ثائرتُه و صبَّ جامَ غضبِه عليَّ ؛ فأنا السببُ، تحملتُ، و هدَّأتُ ابنَ عمِّى كمَا اتفقنَا، و لمْ نتنازلْ عن قرارِنا .

سافرنَا، و تغرَّبتُ عنْ بيتِي، و أهلِي لأولِ مرةٍ، أحْسستُ بالوحشةِ في قلبِي .

(٣٢)

وخوفٍ منَ القادمِ المجهولِ.
أينَ رائحةُ قهوةِ الصباحِ؟ أين شجرُ الأضاليا، والبرتقالِ، و رائحةُ زهرِهما التي تفوحُ من أولِ الصباحِ؟ وأينَ الجِلسةُ تحتَ كرمة العنبِ، و رائحةُ ياسمينِ الشامِ. اللهُ!!! على رائحةِ الياسمينِ، رائحةُ خبزِنا في التَّنُّورِ، آآآآه آآآآآآآآآه! لكنَّ كلَّ شيءٍ يهونُ لعيونِ"أبي فهمي "
سكتتْ وقدْ تزاحمتِ الكلماتُ على لسانِها، وعجزتْ أنْ تطلقَها .
نظرتْ لهَا متفهمةً هذا الحبَ، وعِظمَ التضحيةِ من أجلهِ، و أكملتْ عندمَا تمالكتْ نفسَها:
لا تعرفينَ كيفَ حياتُنا بالضيعةِ؟ حياةٌ، و حركةٌ، و دفءٌ، ومشاعرٌ طوالَ اليومِ، طوالَ العامِ .
فطورُنا معَ الأهلِ، قهوةُ الصباحِ، تجمُّعُ الجيرانِ، مواسمُنا بالضيعةِ ما تنتهي، موسمُ الزيتونِ، و عصرُه، و تخزينُ الزيتِ، عملُ الكبيسِ بكلِّ أنواعِ الخضروَاتِ، عملُ المربات، موسمُ اللوْزِ نأكلُه أخضرَ، و نأكلُه كمكسَّراتٍ عندما يجفُّ، و نسهرُ الليلَ في موسمِ تفتُّحِ الفُستُقِ، نستمعُ لصوتِ تَفَتُّحِ الحباتِ، و طقطقاتِها بالليلِ، قعداتُ عملِ الكبيبة ، وعملِ المحاشي، عملِ مؤنةِ السنةِ، و تطريزُ جهازِ عرائسِ العائلةِ، ملابسٌ و مفارشٌ، أفراحُنا، ومناسباتُنا .

رمضانُ، و لياليهِ، و شغلُ نهارِه، و العباداتُ، و إفطارُنا، و سهراتُنا فيهِ، وحتى معَ عملِي كمعلمَة حياةٌ ثانيةٌ في مدرسةِ الضيعةِ، كلُّنَا نعرفُ حكاياتِ بعضِنا، و نفرحُ .

من كلِّ هذا الدفءِ، والحياةِ لهذهِ العزلةِ فى شقةٍ صغيرةٍ، لا فيهَا ضوءُ الشمسِ، و لا روائحُ الزرعِ، و لا دفءُ القلوبِ.

حاولتُ أنْ أتأقلمَ على الغربةِ، و تكوينِ صداقاتٍ، وقد نجحتُ، و لكنَّني قد ظلَّ قلبي يحنُّ لأيامِ سوريَّا، و بيتِنا، و حديقتِنا، و أمِّي، و إخْوَتي، و ليالي سهرِنا .

أينَ حضنُ أمي؟ و اجتماعُ إخْوتي في المناسباتِ من وحدَتي في بلدٍ غريبٍ؟؟

لكنَّ كلَّهُ سيهونُ منْ أجلِ ابنِ عمي، بدأتْ صحتُه تعودُ لهُ ؛ فلقدْ خسِرَ الكثيرَ منْ وزنِه، و بسمتِه، وإشراقتِه من يومِ أنْ علمَ عُقمَهِ، و كتمانَهُ الأمرِ عنِ الأهلِ .

حاولْنَا أن نُنْقلَ جوَّ الوطنِ في بيتِنَا، و مجتمعنِا الجديدِ، وعشْنَا، ثمَّ مرتِ الأعوامُ، و دائماً يأتينَا السؤالُ: ما أخبارُ العلاجِ؟ و كلُّ منْ يَعْرفنا يا أم فهمي، دكتور في مدينةِ كذا، واللهِ سببُ الخيرِ على يدِه لأُناسٍ كثيرٍ .

أقُولُ:

- إنَ شاءَ اللهُ .

لمْ نخبرْ أيَّ أحدٍ بالحقيقةِ حتى لا تتسربَ للأهلِ، و تحملتُ كلَّ العذابِ عندَ وجودِنا بالعطلةِ في سوريَّا، و كانَ أبو فهمي يهونُ عليَّ، و يسألُني: لو نخبرُ الأهلَ بالحقيقةِ؟ وأرفضُ. انْتَهى، كذبتُ الكذبةَ و سأتحملُ، حياتُنا حلوةٌ، و أنتَ ابنِي، و أنا ابنتُك ..

(٣٣)

هذا قضاءُ اللهِ فلنرْضَ بهِ .

كمِ اشتاقتْ أحضاني لطفلٍ يا "سلوان" كي أضمَّهُ لصدرِي، تشتَاق أذُني لكلمةِ أُمي، كمْ شمَمْتُ رائحةَ أطفالِ صديقاتِي، و تمنيْتُ أن أستيقظَ من نومِي؛ لأجدَ طفلاً بجواري؛ لأضمَّه، و أشمَّه.

فرحتُ لفرحِ صديقاتِي بنجاحِ أبنائِهنَّ، و تمنيتُ فرحةً خاصةً لي بطفلِي، و بنجاحِه، قدَّر اللهُ، ومَا شاءَ فعلَ.

ثمانيةٌ وعشرون عاماً قد مروا، وقاومتُ فيهم حنينِي لابنٍ أوِ ابنةٍ أضمُهم في صدري، و أعدُّهُم ليساندونِي في كبرِ سنِّي، وحنينِي لبلدي، و أهلي، و أمٍّ قدْ ماتتْ و لم أرَها، و إخوةٍ قد تزوَّجُوا ولمْ أَعِشْ معهُم أفراحَهم بالزفافِ و ولادةِ مولودٍ .

و ماتَ أبِي، و ماتَ عمِّي، و زوجةُ عمي، ما أقسى الحنينُ لملاعبِ الطفولةِ و الشبابِ! لمْ تُقطعْ ضحكاتُنا طوالَ هذهِ الأعوامَ و لمْ يخلُ بيتُنا منْ زوارٍ وأصدقاءٍ.

وجدتُ أبا فهمي يتغيرُ علَي، انتقادٌ لكلِّ ما أعملُهُ، انتقادٌ لمظهري، ضيقٌ و تبرمٌ من حديثي، و جلساتِنا.

قال لي يوماً:

- صرتِ عجوزاً يا "أمَّ فهمي .." صدمتْني الجملةُ رُغمَ قسوةِ كلماتِه، و أحاديثِه معي مؤخَّراً، ولكنّي منْ غيْظِي منهُ ضحكتُ، و قلتُ: لا زلتُ صبيةً، عمُري خمسةٌ وأربعونَ عاما فقط، ما زلتُ حلوةً، و رشيقةً، و قويةً، بل أنتَ الذي هرمْتَ، توشكُ على الستينَ، امتلأَ جسدُك، و صارَ لك بطنٌ كبيرٌ، و معَ قليلٍ منَ الأيامِ لن نرى شعراً في رأسك.
لمْ أكُنْ أحبُّ أن أُكايدَه، أو أجرِحَه بالكلامِ، ولكني قدْ تحملتُ الكثيرَ، وفاضَ بي؛ فأخرجتُ بعضَ الجملِ للتنفيسِ عما سببتْهُ لي كلماتُه من جروحٍ .
قلتُ لنفسي : إن تغيُّرَه من شهورٍ لكبرِ سنِّهِ، و أنَّ أشغالَه قدْ زادتْ بعدما صارَ مديراً للمدرسةِ، حتى أتتْ لي زميلةٌ و أخبرتني أن أبا فهمي قدْ تعرفَ على معلمةٍ جديدةٍ بالمدرسةِ، صبيةٍ حديثةِ التخرُّجِ، و أن الكلَّ قدْ لاحظَ ذلكَ، و يتحدثون عنهم، و لم أصدقْ في البدايةِ، و لكنِّي تأملتُ تلكَ التغيراتِ التي حدثتْ لهُ الشهور الماضية، و تغيرتْ نظرتُه لي، و كلامُه، و صمُته، و ابتعادُه عنّي كلما اقتربتُ منهُ، واهتمامُه الزائدُ الجديدُ بنفسهِ.
الآنَ أصبحَ عندي تفسيرٌ للكثيرِ، و الكثيرِ مما كنتُ أتعجبُ منهُ .
تنهدتْ ، وأغمضَتْ عينيْها تحاولُ أنْ تهدأَ منْ ألمِ الذكرى، والجروحِ، ولمْ أملكْ منَ الكلماتِ ما أُعبرُ بهِ عن تألُّمِي معَها، وإنْ ظهرَ -جليًّا- لهَا هذا التأثرُ على وجْهِي، ويدِي الممسكةِ بيدِها حتى هدأت قليلاً وأكملت :

- كانَ من عادتِنا الصراحةُ، و كانَ يحتويني مهما صدرَ منِّي، وواجهتُه فلمْ ينكرْ، واشتدت قسوتُه عليَّ، و قالَ: حقي أن أعيشَ ؛ فلقد صرتِ عجوزاً، و أنا أريدُ أن أتمتعَ بباقِي حياتِي، أريدُ شابةً تعيدُ لي شبابِي بشبابِها، و، و..........

(٣٤)

لمْ أستمعُ لباقِي كلامِه ؛ شيءٌ ما قدْ قبضَ على قلبي، وصمَّ أذُني، و أظلمَ الدنيا في عينِي، أبعدُ كلِّ هذا؟

أفقتُ في المشفى، ما أقسى نظراتِه لي! أينَ قلبُه الطيبُ؟! أين لهفتُه عليَّ؟!

لقد غيَّرَهُ حنينُه لشبابِه الضائعِ، و عادَ مراهِقاً أنانياً .

بادرَني بالكلامِ : سأتزوجُ، لن يتغيرَ عليكِ شيءٌ، سأتزوجُ في شقةٍ بنفسِ بنايتنَا، كأنِّي أذهبُ للعملِ ساعاتٍ إضافيةٍ، من حقي أن أعيش .

وهُنا انطلقتْ من فمِها صرخةٌ صغيرةٌ حارةٌ، وذَرفتِ الدموعَ الحبيسةَ من مقلتيْها، وألجمتْ حالتُها لساني عنِ المواساةِ، والمشاركةِ بكلماتِ تعزيةٍ، كيفَ بكلماتٍ مهما كانتْ أن تداويَ مثلَ هذهِ الجراحِ؟! لمْ أملكْ إلا أن احتضنَها قلبي، قائلاً لها ما عجزَ عنهُ اللسانُ، أكملت بعدَ حينٍ وهيَ لا تزالُ بأحضاني:

- دخلَ علينا بالمشفي زملاءُ العملِ.بعدَ السلاماتِ، و الاطمئنانِ عُدتُّ للتذكرِ، وقدْ شملنِي الإحساسُ بالغربةِ، و امتلأَ قلبي بالوحشةِ .ليسَ لي أهلٌ حولي .حتى ابنُ عمي صارَ غريباً قاسياً .

شـــاهدتُ الحيـرةَ، و الحـــرجَ في الـوجـــوهِ، و الكــلُّ يعــرف بغرامِـــهِ، و أنَّ الاستعدادَ لزواجهِ قدِ انتهتْ كلُّ مراحلِهِ تقريباً، و همْ أصدقاؤنا، و عشرةُ عمرٍ.

أولُ جملةٍ نطقتْ بهَا

- أريـدُ الطلاقَ، أنتم أهلي الآنَ، خلصوني منهُ بـالله عليكم، أريـدُ الطلاقَ، وهذا قراري النهائي، ساعِدُوني إذا كان لي قدرٌ من الحُبِّ في قلوبِكم .

شاهدتُ "أبا فهمي " ينهارُ على كرسيِّه، فلم يخفقْ لهُ قلبِي، جرحُهُ لي قدْ أَماتَهُ، و أماتَ حبَّه فِي حيَاتِي، اللهُ يرحمُك يا "أبا فهمي "، كأنِّي آخذُ عزائَه .

لم يكنْ زوجاً عادياً قد ذهب، كانَ زوجِي، و أهلِي، و ابني، و كلَّ حياتي.

بعدمَا استردتُّ عافيَتِي، ذهبْنَا للقاضي ؛ ليُتمَّ الطلاقَ، وراجعَني القاضِي مِراراً وتَكْـرَاراً، محـاولاً أن يثنيَنِي عـنْ قـراري؛ لأنَّ الطـلاقَ أبغـضُ الحـلالِ عندَ اللهِ.

قلتُ " لأبي فهمي " أمامَ القاضي، و الأصدقاءِ بعدما تمَّ الطلاقُ:

- هنيئاً لكَ يا أبا فهمي، أشكرُكَ ؛ فأنا - أيضاً- أرغبُ بملاحقةِ شبابِي قبلَ أنْ يغرُبَ، فأنـا مـا أزالُ في الخامسـةِ والأربعـينَ مـن عمُـري، و سـأعثرُ على شابٍ يُحْيِي شبابِي .

وانسلَّتْ "فهميةُ " بخفةٍ من أحضانِي، وقدْ علتْ وجهَها ابتسامةٌ واسعةٌ رُغمَ غزارةِ دموعِها قائلةً :

- و كمْ أضحكُ الآنَ عندمَا أتذكرُ ذهولَه، و قدْ صدَّقَ كذِبَتي، أحببْتُ أنْ أراهُ يتعذبُ بمَا حكمَ بهِ عليَّ.

فكرتُ أن أعـودَ لضيعتِي، ولكـنْ مـنْ لي بِهَـا بعـدَ هـذَا العمـرِ في الغربـةِ؟

(٣٥)

ومـنْ سـيتَحمَّلُني؟ عمُـرٌ طويـلٌ مضـى، والـدنيا والنـاسُ قـدْ تغيَّرُوا، لـنْ أسـتطيعَ العـودةَ لبلدِي؛ لأحسَّ بـينَ إخـوتي، و أبنـائِهم، وبلـدِي بالغربـةِ.
سـنواتٌ كثيرةٌ قـدْ مرَّتْ، وتغيَّرَ فيهَـا كلُّ شيءٍ، حتَّى أنَـا قـد تغيرْتُ، و منْ سيقبلُ بهبوطي عليهِ بعدَ هذهِ الأعوامِ؟
إذا كانَ رفيقِي، زوجِي، ابني قدْ رفضني، و رفضَ أن يُكمِلَ شيخوختَهُ معي!
وقتهَـا فكـرتُ، لـوْ كـانَ لي ولـدٌ، ولكـنْ ألـمْ يكـنْ أبـو فهمي ولـدي؟
ووجدتُ بعدَ أيامٍ طويلةٍ قاسيةٍ ألَّا فائدةَ منَ البكاءِ على الأطلالِ.
وقررتُ الاحتفاظَ بذكرياتِي دونَ أن يشوهَها تبرُّمُ أحدٍ بِي.
فجمعتُ مـدَّخراتِي مـنْ عملِي، و مـنْ إرثِ عـائلتِي، و تـذكَرْتُ أن أرضَ اللهِ واسعةٌ؛ فلِأَحيا في كل بلدٍ، و أتفرج على الدنيا، و أُثري حياتِي بالترحالِ، و الترفيهِ؛ فلنْ أستطيعَ أن أعيشَ في بلدٍ تترددُ فيها أنفاسُ أبي فهمي، و دقاتُ قلبِه التي صارت لغيرِي.
زرتُ بلاداً كثيرةً، و عِشتُ كالرحالةِ، القليلُ يكفيني، و يكفي أن أرى أناساً مختلفينَ وبلاداً مختلفةً حتَّى استقرَ بِي الحالُ بعدَ عدةِ سنواتٍ بمصرَ.
عشـقتُها، وشـعُرْتُ أن حبَّهـا يجْـرِي في دمِي، و وجـدتُّها أجملَ ممَـا رأيتُـه في المسلسلاتِ المصريةِ، و أعـرقَ ممـا ذكـرتْ كتبُ التـاريخِ الـذي أعشـقُها "لا غرباءَ في مصرَ".

هكذا يقولُ التاريخُ، كلُّ من دخلَها تطَبَّعَ بطبعِ أهلِها، و تأثرَ قلبُه فيصيرُ منهَا، و لها سألتُها : وما الذي أتَى بكِ هنَا في الدارِ ؟

- كانتْ معرفتِي بالدارِ عندمَا سمعتُ أنَّ دارَ أيتامٍ تبحثُ عن معلمةِ تطريزٍ، و أشغالٍ يدويةٍ لطالباتِها، و أنا متميزةٌ جداً في هذا، و حنَّ قلبِي لتطريزاتِ أمي، و ليالي تطريزِنا لفرشِ، و ملابسِ عرائسِ عائلتِي، وعن طريقِ دارِ الأيتامِ عرفتُ بدارِ المسنينَ، وبمَا أنَّ عمري قدْ جاوزَ الستينَ رأيتُ أنَّ إقامَتِي، واستقرارَي بها سيمحوانِ أيَّ إحساسٍ بالوحدةِ لديَّ .

صِرتُ الآنَ أُعلِّمُ تسعةً منَ الصبايَا، اعتبرتُهُنَّ بناتِي، و عزاءً لي منَ اللهِ في كبرِي .

نحنُ ساكنِي هذهِ الدارِ" يا سلوان! " نعيشُ، وتتجددُ حياتُنا باهتمامِنا بالصبيةِ، والصبايَا الأيتامِ هُنا، وهذَا هو أَفضلُ ما فَي الدارِ اهتمامُ كلِّ مسنٍّ منَّا بعددٍ منَ الأيتامَ أعادَ لنَا الحياةَ التي ظننَّا أننَا قد فقدْنَاهَا، وجعلَ لحياتِنا هدفاً نسعى لتحقيقَه، ونحيَا منْ أجلِهِ.

هكَذا تذكرتُ ما حكتْهُ لي "فهميةُ " و أنا أراقِبُ عملَ البناتِ، و أفرحُ بنتيجةِ مجهودِي أنَا وهيَ معهمْ.

تركتْ فهميةُ البناتُ لينهُوا الرسمةَ الجديدةَ، و جلستْ بجواري ممسكةً بقهوتِها التي تفوحُ رائحتُها العطرةُ، و بادرتْنِي:

- كيفَ شغلُك بالتابلوه؟؟ واللهِ المدام "هُدى" راح تتجن بانتظارِه.

- الحمـدُ للهِ في نهايتِــهِ، يــوميْنِ ويــتمُّ .مـا أخبــارُ الخيــوطِ الجديــدةِ؟

(٣٦)

- كلَّمنا التاجرَ من ترْكِيا، و تمَّ شحْنُها، و ستصلُ خلالَ يوميْنِ .
واللهِ سفري عرَّفني بأناسٍ كُثْرٍ، وهذهِ المعرفةُ أعطتني عملاً جنبَنِي نفاذَ نقودِي في سفرِي، و ترحالي.
استيراد، و بيع التابلوهات، و الخيوط عملٌ مربحٌ، كما أنَّ معرفةَ الناسِ التي تعشقُ العملَ اليدويَّ عززَ منْ عملِي .. هههه .
- لديَّ تابلوه جديدٌ تحفةٌ، تقليدٌ لصورةِ رسامٍ منْ عصرِ النهضةِ، خرافيةٌ في ألوانَها، و تفاصيلِها، متشوقةٌ للبدءِ بهَا .
- ستصيرين مليونيرة قريباً، عندكِ حجزٌ لتابلوهات كثيرةٍ، و كأنَّهُ مزادٌ، كلُّ زبونةٍ، أو زبونٍ يرفعُ السعرَ ؛ ليحصُلَ على التابلوه قبلَ غيرِهِ .
ثمَّ عادتْ لجُرحِها الذي لا يلتئمُ، وقالتْ: آهٍ يا أبا فهمي! عشتَ شبابَك مرةً أخرى؟ الشابةُ الصغيرةُ ردتْ عليكَ شبابَك؟ هلْ عرفتَ بعدَ فواتِ الأوانِ أنَّ ما يذهبُ لا يعودُ، و أنَّ لكلِّ عمرٍ حلاوتَه، و طيبَهُ، و مباهجَه؟؟
واللهِ أنا التي عشْتُ هنيئةً و صارَ عندِي تسعَ صبايَا، اللهمَّ لكَ الحمدُ، و الشكرُ.
انتهتْ دروسُنا لهذَا اليومِ، وتفرَّقَتْ طالباتُنا لتحضُرْنَ باقِي دروسِهِنَّ على يدِ باقِي أعضاءِ، وعضوَاتِ الدارِ، وأنَا لا يزالُ لدي الكثيرَ منَ الأعمالِ.
الآنَ موعدُ زيارةِ قسمِ العاجزاتِ عنِ خدمةِ أنفُسِهِنَّ .

على قـدرِ ما كانَ يسـعِدُنِي- كلَّ يـومِ- قـضـاءُ وقـتِ مسـاعدتِهنَّ، والاسـتماعُ لحديثِهنّ على قدرِ وجَلِي مؤخَّراً وأنَا أسيرُ في الممرِّ المؤدِي لذلكَ المكانِ.

(٣٧)
مِرْآةٌ رابعة
(مكسورةٌ)

هـا أنـا أسـيرُ بـالممرِّ بأرجـلٍ مرتجفـةٍ؛ فأنـا أعـرفُ مـا ينتظرُني، قـد يكـونُ حقيقـةً، وقـد يكونُ وهمـاً يسـيطرُ على أعصـابي، إن كانَ وهمـاً سـيتبددُ.

وما إن وصلتُ إلى الغرفةِ التي أخافُ منها حتى سمعتُ كالمعتادِ مؤخَّراً:

- يا صالحُ!

اقشعرَّ بدني، وانتابَني عجْزٌ عن الحركةِ.

ترددَ النداءُ في أذُني :

- أنت فين يا صالحُ؟! .

تـذكرتُها : كومـة صـغيرةً مـن الملابـسِ على مقعـدٍ متحـركٍ، تـدخلُ الـدارَ عميـاءَ، وقعيـدةً، أكادُ أجـزمُ أنهـا تجـاوزتْ التسـعينَ مـن عمرِهـا بمراحـلَ .

لمْ تكف عنِ النداءِ عليَّ "صالح!"

لقد أتى بها أقاربُها في مثلِ هذا التوقيتِ، ومروري اليومي على هذا القسمِ، و كانـتْ شـديدةَ الاحتيـاجِ للعنايـةِ، عـاجزةً عـن الحركـةِ بفعـلِ العمـرِ، و الشـيخوخةِ المتـأخرةِ، و الأمـراضِ، عميـاءَ و تركوهـا بعـد إنهـاءِ الإجـراءاتِ، وما إن شاهدتُّها إحدى العاملات إلا و هتفتْ :

- الست صباح! سبحان الله! ولا حول ولا قوة إلا بالله! الدنيا!
و بكتْ، ثم انطلقتْ تحكي لى وللممرضةِ المرافقةِ أثناءَ خروجِنا من القسمِ، وتوجهنا للحديقةِ:
- أدركتُ الدنيا و الست صباح في الخمسيناتِ من عمرِها، و كنتُ أخدمُ فى بيتهم معَ أمي، التي عرفتُ منها ما لم أدركْهُ في عمرِ الست صباح المبكرِ.
هي الأختُ الكبرى لثمانيةِ إخوةٍ، و أخواتٍ. بيتُهم بيتُ علمٍ، ودينٍ. أبوها يُدرِّسُ علومَ الدينِ في الأزهرِ.
تعلَّقَ قلبُها و هي صغيرةٌ بجارِهم الذي أصبح ضابطًا في الجيشِ، وكانت وسيلةُ مشاهدتهم لبعضهم من وراءِ مشربيةِ البيتِ، إخوتُه صديقاتُها، قد نقلنَ رسائلَ المحبةِ بين القلبينِ، و كمْ تعالتْ الضحكاتُ في البيتينِ سعادةً بهذا الارتباطِ الذي لم يخفَ على أحدٍ .
" علي" أملُ أغلبِ بناتِ العائلاتِ، و أمنيةُ كلِّ أمٍّ لابنتها، و شرفٌ لأيِّ رجلٍ أن يصاهرَه و عائلتَه.. اختارَ" صباح" بوجهِها المشرقِ البشوشِ.

(٣٨)

قامتِ الحربُ و التحقَ "علي " بالجيشِ، و كلَّما غابَ و عادَ يتأجَّجُ الشوقُ و الحبُّ أكثرَ .

تعلقتِ القلوبُ، و اتفقتِ الأمهاتُ على كلِّ شيءٍ، و أوْصَلوا الأمرَ للرجالِ الكبارِ في العائلتيْنِ، و باركَ الكلُّ هذا الارتباط الذي يعززُ صداقةَ العائلتيْنِ .

تمتِ الخطبةُ، وكلُّ التجهيزاتِ في انتظارِ إتمامِ مدةِ خدمتِه العسكريةِ، والاستقرارِ في المدينةِ.

البنتُ ما زالتْ صغيرةً، و لا بأسَ إن تأجلتِ الزيجةُ عاماً أو عامينِ .

و لكنَّ "علياًّ" ذهبَ و لم يعدْ، لا أخبارَ عنهُ، قد خرجَ مع فرقتِه، وخاضُوا معركةً كبيرةً انتصرُوا فيها، وإن لمْ يرجعْ منهم إلا قلةٌ، وأُخبرتْ أن القتلى كانوا كثْراً، وأغلبُهم غرقوا في البحرِ الفاصلِ بيننا وبينَ الأعداءِ، و ظلَّ مفقوداً لسنواتٍ.

و انتظرتْ " صباح"، وأخذ يحدُوها الأملُ حتى تمَّ إعلانُ أنهُ لا أملَ في عودتهِ، وعُدَّ ميتاً، و لكنَّها ظلتْ تنتظرُ، غيرَ عابئةٍ بكثرةِ الخُطَّابِ الذين يتَردُون على بيتِهم طمعاً في النسبِ الكريمِ، و الفوزِ بجمالِها الباهرِ، و أخلاقِها الحميدةِ .

- سأنتظرُ "علياًّ ".

خشيتْ عليها أمُّها أن تُتهمَ بالجنونِ، و لامها إخوتُها، حتى "أم علي "، و إخوتُه قد أشفقنَ عليها، و طلبنَ منها أن تتزوجَ .
طالتِ السنواتُ، ولم يعُد "علي"، و لنْ يعودَ، وردتْ :
- "علي" لم يمُتْ، لمْ يجدُوا لهُ جثةً، قدُ يعودُ في أيِّ وقتٍ .
- أتزوجُ؟ و هلْ في الناسِ مثلُ "عليٍّ"؟؟ هاتوا لي مثلَه .
انتقدَها الناسُ، و قسى عليها إخوتُها الذكورُ الكبارُ، لكنَّ أباها قد ردعّهم، و أبعدَ الألسنةَ عنْها، و حماها من أيِّ ضغطٍ .
- ليستْ صغيرةً، و ليسَ من الدينِ إجبارُها على زيجةٍ لا تريدُها، اتركوهَا حتى يطيبَ جرحُها.
و لكنَّ الجرحَ لم يطبْ .
تنهّدتْ " سعادُ" وهي تحكي لنا، وقد تأثرتْ وإيَّانا بالموقفِ الحزينِ.
و مرَّتِ السنواتُ، و هي قبسُ البيتِ و الحيِّ كلِّه، ماتَ الأبُ و الأمُّ، و تزوجَ كلُّ الأخوةِ، و استقلَّ كلٌّ منهم ببيتٍ سوى الصغيرِ "صالحِ" ، عاشتْ معهُ في بيتِ العائلةِ .
بعدَ سنواتٍ عديدةٍ، سمعتُ من يهمسُ، و ينعتُها بالعانسِ، عانسٌ؟ ألمْ تُخطبْ" لعلي"؟ أوَ لمْ يتفقْ الرجالُ على كل شيءٍ؟ ألمْ يتجهزْ كل شيءٍ منْ أجلِ الزواجِ؟ حتى أنَّ فستانَ العرسِ مازالَ في صندوقِها حتى الآنَ، أليسَ الزواجُ عرضاً و قبولاً؟ ألمْ يُتمَّ أبوهَا و أبوه ذلك، و اشتهرَ ذلكَ بينَ الناسِ؟!

زواجُها تأجلتْ مظاهرُه فقط، و كانَ ينقصُه المأذونُ، ، وإبرامُ العقدِ انتظاراً لعودتهِ، و لم يعدْ.، هي زوجتُه وكفى.

(٣٩)

لم تؤلمْها الكلمةُ التي كانَتْ ترددُها خلسةً زوجةُ أخيها "صالح "، هي زوجةُ "علي" في الجنةِ بإذنِ اللهِ، هكذا استقرَّ قلبُها و اطمأنَّ .

و ظلت قبسُ البيتِ تحنو على الجميعِ، قريبٍ و غريبٍ، كما ربَّاها والدُها، مستقلةً، عزيزةَ النفسِ، ذاتَ رأيٍ راجحٍ يُسمعُ، سخيَّةَ اليدِ و القلبِ .

" صالح " أصغرُ الأخوةِ حتى يكادَ يكونُ ابنًا لهَا، سكنَ إليها؛ لأنها أمٌّ و أختٌ، و أصمَّ أُذنيهِ عن كيدِ النساءِ، و غيرتهن منها، و كان يُبعدُ عنها ما يمسُّ خاطرَها، أو يؤذيها.

كانتْ قِبلةَ زُوَّارِ البيتِ ؛ فهيَ العقلُ الراجحُ، و القلبُ الحنونُ، و بئرُ الأسرارِ الذي لا يبوحُ بما يُستودعُ بهِ، و تؤتمنُ عليهِ، مثقفةٌ ذاتُ علمٍ و تفقهٍ في الدينِ .

صمتتْ " سعادُ" حائرةً:

- كانتْ... ماذا أقولُ؟ وقد رأيتُ هذا، واستشعرَه قلبي، كأنَّها حضنٌ كبيرٌ و عقلٌ متفهمٌ بل كانت أكبرَ من ذلكَ، تُصادقُ الفقيرةَ والغنيةَ، سخيةً بالمالِ والوقتِ والنصيحةِ والاستماعِ والحنوِّ.

كانَ "صالحُ "- كما كلُّ الناسِ و الأقاربِ -يضعُ عندها سرَّه و أخبارَه .

وسبحان اللهِ! هي منْ لمْ تغادرِ البيتَ إلا للضروراتِ القصوى، كانتْ تشيرُ بالرأي الراجحِ في أمورِ الحياةِ حتى في التجارةِ و تنميةِ المالِ؛ فأبوها أورثَها و إخوتَها مالاً وعقاراتٍ و أراضٍ كما أورثَها حكمتَه في التدبيرِ والتصرفِ.

- " العانسُ البخيلةُ!"

كمْ سمعتْ وسمعَ خدمُ البيتِ هذا اللقبَ البغيضَ، و كمْ سخِروا منهُ ومنْ قائلتِهِ.

فياضةُ الخيرِ بخيلةٌ؟ إلا أنها مدبرةٌ مفكرةٌ؟، تتحولُ اليابسةُ في يدِها خضرةً كما يقالُ.

كانَ الخدمُ يتركونَ لها البدايةَ لتضعَ يدَها ببركتِها عندَ تجهيزِ طعامٍ، أو تحضيرِ خزينٍ.

وتقسِّمُ الخادماتِ، إنها عندمَا تلمسُ الطعامَ يضعُ اللهُ فيهِ طيبَةً لم نتذوقْها في أيِّ طعامٍ أبداً.

وبمرورِ السنينِ ماتَ إخوتها، وتفرَّقَت بنسلهمُ السبلُ، ولم يبقَ لها إلا "صالح" أصغرُ الإخوةُ.

تقدَّمَ بها العمرُ، و وهَنَتْ وضعُفَ بصرُها فأصبحَ "صالحُ " عينَها وقوتَها.

قبلَ ذهابِه للعملِ يتممُ على طلباتِها، ويساعدُ الخدمَ في شؤونِها، و يعدِّدُ لهمْ، ويكررُ ما يفعلُونه لها طوالَ غيابِه، وعندَ عودتِه منَ العملِ يدخلُ غرفتَها ؛ليطمئِنَّ عليها، وكمْ سهِرَ معَها وهم يتحدثون و يتسامرون.

ثقُلتْ حركتُها حتى كادتْ أن تنعدمَ؛ فلقد تجاوزتِ الثمانينَ، ونشِطَ "

صـالحُ " الـذي يصغرهاببضـعٍةٍ وعشـرينَ عامـاً أو أكثـرَ، وتحمَّـسَ قلبُـه لخدمتِها حتى كادَ الخدمُ أن لا يجدوا ما يفعلونه.

(٤٠)

اشـترى صـالحُ، وبنى بيوتـاً كثيرةً بمشـورتِها، وكانـتْ تـرفضُ أن ينتقلـوا للسُّكْنى في بيتِهم، وتركَ بيتُ العائلةِ .

أخبرتُه :

- اشـترِ بيوتـاً و أراضـيَ، و ابْـنِ و أجِّـرْ ؛فكلُّ هـذا سـينفعُ أولادَك عنـدمَا يكبرون.

كبُرتْ و عجزَ جسـدُها عـنِ الحركـةِ، وصـارتْ ضـريرةً، ولكـنَّ حواسَّـها قـد ظلتْ سليمةً، و ظلَّ عقلُها راجحاً لمَّاحاً .

وكما كبُرتْ وهرِمتْ هرِم بيتُ العائلةِ، وظهرتِ الشروخُ جليةً في الحـوائطَ، و أنـذرَ بالسـقوطِ، اعتزمَ " صـالحُ " الانتقـالَ بعائلتـهِ لأحدِ بيوتـهِ الواسـعةِ حمايةً لهمْ من تهدُّمِ البيتِ وهُمْ بهِ.

رفضـتْ "صـباح " تـركَ البيـتَ، و حـاولَ معهـا "صـالح" بـاللينِ والتفـاهمِ، ولكنَّها رفضتْ.

كانتْ ترددُ:

- إنْ خرجتُ من هذا البيتِ سأموتُ.

غضبَ منها و ارتفعَ صوتُه أمامَها لأولِ مرةٍ خوفاً عليهَا.

- سأحملُكَ على ظهري حتَّى السيارة وننتقلُ.

- اتفُرِضَ عليَّ قهراً يا صالح! و أنا لم يفرِضْ أبي أبداً على أمراً! أتُكسرُ كلمتِي و إرادتي بعدَ هذا العمرِ؟
فيردُّ عليها :
- نعم. لصالحِكِ، كلُّنا سنتركُ البيتَ، نحنُ نرى الشارعَ من شقوقِ الجُدرانِ، البيتُ سيقعُ، كلُّ الأثاثِ انتقلَ للبيتِ الجديدِ، و"عنايات" زوجتِي والخدمُ قد رتَّبوا كلَّ شيءٍ وجهَّزوه.
تحرَّكَ قلبُها، واشتدَّ خوْفُها على الأولادِ، وقالت:
- دعْ عنايات و الأولادَ ينتقلونَ هناكَ.
أخافُ عليهِم، لكنَّني لنْ أتركَ هذا البيتَ لو تركتُه سأموتُ كما قلتُ لكَ، لا تغضبني و إلا ستكونُ تلك الفعلةُ قطيعةً بيني وبينِكَ ليومِ الدينِ.
انهارَ و بكى!
- أنا لن أتركَكِ، لا أستطيعُ .
- انتهى الأمرُ، أنتَ الآنَ في سن التقاعدِ، اذهبْ مع أولادِك كأنَّكَ في عمِلِك، و كما عشنَا دائماً، تأتي صباحا لنفطر سويا، و عُدْ لأولادِك، و إن أحببتَ أنْ تراني بعدَ موعدِ عملِك كمَا كنتَ تفعلُ، فتعالَ أطمئِنُّ عليكَ وتطمئِنَّ عليَّ، وآنس بصحبتِك، ثم تذهبُ للنومِ مع أولادِك.
البيتُ الجديدُ كما تقولُ: قريبٌ للغايةِ .
اتركْ معي خادمَتي ؛لتعرفَ مواعيدَ دوائِي فتعطني إيَّاها، سأنتظرُك لنفطرَ سوياً وتطعمُني بيدكَ، أنتَ الآنَ يدِي و عينِي.

استمرَّ لسنتينِ يأتي لها يومياً و معَهُ إفطارهما و يشرفُ مع الخادمةِ على نظافتِها، و كلِّ شؤونِها، ويذهبُ لحالهِ، ثمَّ يعودُ لها بعدَ صلاةِ العشاءِ، ليطمئنَ عليها، ويستعيدوا الذكرياتِ، ويشكو حالَه أو حالَ أحدِ أولادِه، يخبرُها بالطُّرفِ، وما حدثَ مؤخراً بالمدينةِ ؛ حتى يغلبها النعاسُ، فتنامُ ويتركُها في ذِمَّةِ الخادمةِ بعدَ أن يؤكِّدَ على موعدِ كلِّ دواءٍ حتى يأتي صباحاً.

(٤١)

في كل مناسبةٍ، رمضان، عيد شمّ النسيمِ، هي أولُ من تشاركُهُ العيدَ، و يحتفلُ معها بالمناسبةِ، ثم ينطلقُ إلى عائلتِه و باقي الناسِ. دعا اللّهَ في كلِّ صلواتِه أن يمدَّه بطولِ العمرِ، و أن لا تتغلبَ عليهِ أمراضُهُ حتى يظلَّ يعودُها ؛ ليؤنسَها وتؤنسَه، ويستطيعَ خدمَتها. ماتَ فجأةً بحكمِ تكالبِ أمراضَهُ الكثيرةُ عليهِ، وحققَّ اللّهُ دعائَه أن يظلَّ يؤنِسُ أختَه آلامَها، ويعودُها حتى آخر يومٍ في عمرِه.

لم يأتِ لها في الصباحِ، سألتْ عنهُ، ولم تعرفْ الخادمةُ بماذا تردُّ عليها، و احتارتْ ماذا تفعل؟ لا تستطيعُ أن تحملَها لوحدِها لتغييرِ فُرُشِ سريرِها، وتبديلِ ملابسِها وتنظيفِها.

لجأتْ لابنهِ عندمَا ذهبتْ إلى العزاءِ.

- ماذا أفعلُ؟ ماذا أقولُ لها؟

- قولي: إنهُ مريضٌ، وقد نصحَهُ الطبيبُ أن يمكُثَ بالبيتِ لثلاثةِ أيامٍ فقطْ، وسوفَ يأتي لها بعدَها، اصْبرِي، واستعينِي بمنْ يساعدُك حتَّى تنتهِيَ أيامُ العزاءِ، و سأتصرفُ.

- أَلَا تُحضِرها هنَا الآنَ؟ هي وحيدةٌ ومريضةٌ وأنَا سأخدِمها

- تعرفين أنَّ أمي لا تطيقُها، و زوَّدَ الكِبرُ من عصبيتِها، لن نسلمَ من الخلافِ والشجارِ، والبيتُ مليءٌ بالمعزّين، بعد العزاءِ سأتصرفُ.

وكان التصرفُ أن أعطيتُ الخادمةَ أجرَها وأتـوْا بسيارةٍ لتنقلَها، و كانتْ تصرخُ لـن أتركَ البيتَ، أنا أسكنُ في نفسِ الشارعِ، وشاهدتُّ ما حدثَ. قد ظننَّاها أُخذتْ لبيتِهم، وها أنا أجدُها هنا في دارِ المسنينَ وهيَ لا تدري إلى أينَ تُحملُ.

قلتُ لسعادَ :

- كنتُ هُنا عندمَا وصلتْ.

تسمعُ ولا ترى، تسألُ ولا من مجيبٍ سوى قولِهم: اصبري يا عمتي. تنادي:

- صالحُ! صالحُ! أين أنا؟

منذُ أنْ وصلتْ لم ينقطعْ نداؤُها، أُدخلتْ غرفتَها وكلُّها رعبٌ عندما سمعتْ أصواتاً غريبةً عنها ** الطبيب والممرضات والعاملات**

صالح! أينَ أنتَ؟ أينَ أنا؟ من أنتم؟ سأموتُ، قلت لكَ يا صالح : سأموتُ. ودخلتْ في سكراتِ الموتِ بعد ساعةِ فقطْ من وصولِها، وظلتْ تعاني يوميْنِ، ثم لحقتْ "بصالحَ" و "علي" في الجنةِ.

كنتُ أثناءَ استرجاعِ ذلكَ أرتجفُ، وألوذُ بركنٍ بجدارٍ يجاورغرفةِ صباح، أغمضتُّ عيني بشدةٍ رغبةً زوالِ ذلكَ الصوتِ المنادي عنِّي.

أفقتُ على احتضانِ الدكتورة "شيرين " لي.

- ما لك؟ أسمعتِها تنادي مرةً أخرى؟

ارتجفتُ و كففتُ دموعي وأنا أقولُ:

- صوتُها لا يتركُني عندمَا أمرُّ من هنَا. رحمها اللّهُ.

(٤١)

- رحمها اللهُ.

- ماتتْ وحيدةً بدونِ أهلٍ معَها، يصعبُ عليّ إحساسُها بالوحشةِ والفزعِ، وإدراكُها أنها تركتْ بيتَها وهيَ وحيدة،لا ترى ولا تعرفُ أينَ هيَ؟ ومن الذين حولها؟ ولا يعرفونها. تسألُ عن أخيها وندائِها عليهِ.

- رحمها اللهُ. الله يجعله في ميزانِ حسناتِها. الموتٌ واحدٌ.

تعالي، سأحكي لكِ حكايةً.

وشدتْنِي وأنا أجرجرُ قدمِي التي لا تستطيعُ حملي من حزني و خوفي وفزعي.

(٤٢)
مِرْآةٌ خامسةٌ

أدخلتنِي "دكتـورة شـيرين" لغرفـةِ الأطبـاءِ الفارغـةِ منهمْ في هـذا الوقـتِ، وطلبت لي كوباً من الليمونِ بالنعناعِ حتى تهدأَ أعصابي، وعندمَا فرغْتُ من تناوُلِه ِقربتْ من مجلسِ مقعدِها، وأمسكتْ يدي، وشرعتْ تحكي: هذه حكايةُ عمَّتي الكبيرةِ، سأحكيها لك.

سمعتُ أغلبَها فلمْ أعاصرْ من حياتِها إلا القليلَ.

عاشتْ في قريةٍ بالريفِ، والدُها- جدي- تاجرُ إبلٍ، وأُمُّها فلاحةٌ جميلةٌ. عمَّتِي كانتْ بكريَّة والديْها، وتلاها أولادٌ كثيرون وبنتانِ، ولكنْ كانَ نصيبُ الأولادِ الموتَ بعدَ عدةِ أشهُرٍ منَ الولادةِ.

تحمَّلت معَ أمِّها عبءَ هذه المأساةِ التي كانتْ تهددُ الأمَّ، وذلكَ بأنْ تأتيَ للبيتِ زوجةٌ جديدةٌ تلدُ الذكورَ؛ ليعيشوا، ويكونوا سنداً لوالدِهم وعونا وعزوةً، فهم في مجتمعٍ ريفي يعتزُّ بالولدِ، وبكثرةِ الإنجابِ، وكانَ جدِّي في البدايةِ لا يَحفلُ كثيرا، فبحكمِ أنَّ إخوتِه جميعاً كانوا ذكوراً، وليسَ لهُ إلَّا شقيقةٌ واحدةٌ كان يحبُّ الإناثَ، ويعتبرُهنَّ رزقاً، وعندمَا عاشتِ البناتُ الثلاثُ قال: منْ أحيا البناتَ سيُحيِي الذكورَ عندمَا يشاءُ، و يرضَى عنَّا، ولكنَّ الشوقَ للولدِ و الوريثِ يبدو أنه غريزةٌ في الرجالِ.

بـدأ بعـد سـنواتٍ طـوالٍ يمَـلُّ، وحثَّـه الجميـعُ على الـزواجِ بـأخرى. ولنفـوذِ أهلِ جدتي وتدبيرِ وحكمةِ أمِّها، كانتْ تَعْلمُ ما يـدورُ بالقريـةِ من خدَمِها ، وعلاقاتِها الطيبةِ بكلِّ إنسانٍ في القريـةِ، كانتْ كأمٍّ حتى لمن يكبُرها سناً، وبحكمِ كونِها زوجـةُ عمدةِ القريـةِ كانتْ ملاذاً لكلِّ مشتكٍ، ولم تـرُدَّ أحداً خائباً أبداً، تساعدُ أيَّ إنسانٍ بنفْسٍ طيبةٍ راضيةٍ، تعملُ الخيرَ كما تتنفسُ.

بمجـردِ أن يصلّها أيُّ همسٍ بوجـودِ أيِّ عـروسٍ تسيرُ لبيتِ أهلِ العـروسِ محملةً بالخيرِ وتتحدثُ بصراحةٍ، وبدونِ مداراةٍ :

- ابنتي، وأنا لن نطيقَ لها شريكةً.أيرْضِيكُم أنْ نطلبَ لها الطلاقَ؟ أترضـونَ هـذا لأختِكم، أو ابنـتِكم "أم السـعد"؟ أيرضِـيكم تشـتتُ بناتِهـا اللـواتي سيمكثْنَ في بيتِ الأبِ وفقاً للعـاداتِ؟ أترضوْنَ لقلبي وقلبِ ابنتي بالحسرةِ؟ ألَا يكفيها حسـرةُ موتِ أولادِهـا الـذكورِ بينَ أحضـانِها كلَّ عـامٍ؟ ولسـحرِ لسـانِها، وحـلاوةِ طبْعِهـا، وصـراحتِها تنصـرفُ الأسـرةُ عـن هـذه الزيجـةِ التـي كانـتْ تمثـلُ أمـلاً لأيِّ أسـرةٍ أو فتـاةٍ فـي القريـةِ..

"عمَتي" تزوجـتْ صـغيرةً كالعـادةِ في تلـكَ الأيـامِ، ولا تكـادُ تفقُـه في أمـورِ الزواجِ شيئاً.

خرجتْ من تهديدٍ بهدمِ حياةِ أمِّها لبطشِ زوجٍ اعتادَ أكْلَ الحرامِ في عملهِ بالتزويرِ والتدليسِ كمفهومِها هي عن الأخلاقِ والشرفِ، ولم يكنْ هذا يخْفَى على أحدٍ،

(٤٣)

وإنْ فسرَه البعضُ بأنَّ هذهِ شطارةٌ وحسنُ تدبرٍ.

ورُزقتْ أمُّها بالولدِ، -ابي- وفي هذهِ المرةِ قد قاموا بإخفاءِ الأمرِ عن كلِّ الناسِ إلا عنِ الوالدِ المتشوقِ للذكرِ، وأعلموا الجميعَ أنها ابنةٌ رابعةٌ، وتمَّ عملُ كلِّ الأعمالِ السحريةِ والخرافيةِ، وتقديمِ الذبائح للفقراءِ وعملِ النذورِ لأولياءِ اللهِ الصالحينَ ؛ حتى يعيشَ هذا الولدُ، وألبسُوه ملابسَ البناتِ، وتمَّ خرقُ أذنَيْهِ، وألبسُوه حلقاً، و تمَّ إخفاءُ هذا حتى وصلَ عمرُ" أبي " فوقَ السنتينَ.

هذا العمرُ الذي يُعتبرُ أربعةَ أضعافِ عمرأيِّ ذكرٍ من أبنائِها السبعةِ الذين تُوفُّوا من قبلِ..

وتمَّ الإعلانُ عن أنَّ هذا المولودَ ذكرٌ يومَ ولادةِ أخيه الذكرِ الثاني، وحانَ ختانُه. ونُحِرتِ الكثيرُ من الذبائح لتأخذَ عينَ أيِّ حسودٍ، أو حقودٍ في تلكَ الليلةِ، وامتدَّ ذلكَ لسبعةِ أيامٍ، حتى عجزتْ بيوتُ القريةِ من غنيِّها وفقيرِها عن تخزينِ المزيدِ منَ اللحومِ والأطعمةِ.

وأعقبَ ذلكَ ذكرٌ ثالثٌ، فاطمأنتْ حياةُ جدتي، واطمأنتْ عمتي، وتلفَّتتْ لتعرفَ كيفَ تعيشُ في بيتِ هذه الأسرةِ المركبةِ الكبيرةِ وهي زوجةُ كبيرِ الذكورِ في العائلةِ .

عاشتْ حياةً صعبةً وسطَ جبروتِ زوجٍ خشنِ الطبعِ، وغمزاتِ و لمزاتِ زوجاتِ إخوتِه الغيارى من جمالِها الأخَّاذِ، وأظهرنَ شماتةً بأنَّ زوجَها لصٌ ومختلسٌ ومزوِّرٌ، قائلاتٍ:

- لا تغتَري بجمالٍ، المالُ الحرامُ الذي ينهبُه زوجُك سيحرقُك،

رغمَ أنهم يأكلونَ، وينهلُون من هذا المالِ الحرامِ، ويستزيدونَ منهُ، فهو الكبيرُ المهيمنُ على كل مواردِ الأسرة والمتصرفُ في شؤونها.

صبرتْ من أجلِ ولدِها البكري الذي تلاه عشرُ بنات، وكأنها لم تبكِّر بالذكرِ فزادتْ معايرةُ سلفاتِها بأنها أمُّ البناتِ.

حقاً إن كيدَ النساءِ لا ينضِبُ إذا سكنَ الحقدُ في النفوسِ.

تحملتْ؛ فلا طلاقَ في الريفِ، ولكنْ زوجةٌ ثانيةٌ تقهرُ وتذِلُّ.

عاشتْ حياتَها صابرةً راضيةً، تقابلُ الإساءةَ بالإحسانِ، وتردُّ السبابَ بالابتسامِ، هكذا تعلمتْ عمتي من جدتي الصابرةِ ((وبشِّر الصابرينِ يا بُنيَّتي!)).

لقد صبرتُ، وعوضَني اللهُ ورزقني بعد صبرِ سنواتٍ، أترضين أن يحبَّكِ الخلقُ وربُّ الخلقِ عنكِ غيرُ راضٍ؟ اجعلي قلبَكِ وعملَك مع اللهِ ولله.

هم مساكينٌ يا بنيَّتي، القلبُ الذي يمتلئُ بالحقدِ، والنفسُ التي تميلُ للكيدِ والهمزِ واللمزِ مسكينةٌ؛ كلما زاد حقدُها زاد عذابُها، إن الغلَّ والكيدُ يزيدُ النارَ التي تستعرُ في قلوبهم، أتظنينَهم هادئين مطمئنين؟ بل تحرقُهم نارُ أفكارِهم وحقدهم، اتركيهم، ما لك بهؤلاءِ المساكينِ؟

مات زوجُ عمَّتي بعدَ ميلادِ أصغرِ بناتِه بعامٍ، ومازالَ الولدُ في سنٍّ يقاربُ الثالثةَ عشرَ من عمرِه، وهي في بيت عائلةٍ، والميراثُ والحقوق مَشاعٌ تنتَقلُ حقوقُ التصرفِ فيها للكبيرِ .

زادتْ الحربُ عليْها من سلفاتِها خوفاً من إتمامِ عادةٍ وإرثٍ ريفي أن يتزوجَ الأخُ أرملةَ أخيه.

أعلنتْ رفضَها لهذا بشكلٍ قاطعٍ، وهددتْ - إن ألْمحَ أحدٌ لذلك - أن تأخذَ أولادَها، وتستخدمَ نفوذَ عائلتِها للحصولِ على إرثِها وإرثِ أولادِها - وان كانت تعرف صعوبة ذلك- وتلوذُ ببيتِ أبيها.

رفضتْ لزهدِها في الزواجِ بعد سنواتٍ من القهرِ، ولاكتفائِها بأولادِها الأحدَ عشرَ.

ولردِّ كيدِ السلفاتِ لتستطيعَ أن تحيى، واشترطتْ أن يكونَ لها مبيتٌ مستقلٌ لها، ولأولادها ببابٍ منفصلٍ عن بيتِ العائلةِ، تلجأ فيه للنومِ وأولادِها؛ لتدرأَ أيِّ شُبهةٍ من جانبِ سلفاتِها، وحتى يلتفتَ ابنُها لدروسهِ بدونِ أي إزعاجٍ ؛فهو أملُها وأملُ إخوته.

فهيَ لا تستطيع تركَ العائلةِ وإلا نهبوا ميراثَهم، وأينَ تذهبُ بتلكَ الأنفسِ بالإضافةِ إليها.

والِدُها لنْ يمانعَ ولكنَّ حقوقَ أولادِها وإرثَهم أولى بالرعايةِ، ووجودها بجواره.

أخبرتْها أمها:

- اعملي في البيتِ، والحقلِ كحال سلفاتك، وساعديهنَّ ((ادفعْ بالتي هي أحسنُ فإذا الذي بينكَ وبينه عداوةٌ كأنهُ وليٌّ حميمٌ)).

وعندَ انتهاءِ العملِ أغلقي عليكِ، وعلى أولادك بابَك.، علّمي ابنَك ليشتدَ عودُه ويحميكِ ويحمي إخوتهِ.

لا تُطلعي أحداً على جرْحِك، أو يدري أحدٌ بحاجَتِك وضعفِك؛ فمن يسترُه اللهُ لا يقدِرُ العبدُ على فضحِهِ.

تحملتْ مكائدَ النساءِ الغيارى، وشظفَ العيشِ رغمَ عظمِ الإرث والعائدِ، وتسولت حقَ أولادِها وتحملتْ ؛ حتى يتحققَ الحُلمُ، ويتخرجَ ابنُها من الجامعةِ، ويستردَّ الحقَّ المسلوبَ.

كانتْ تتاجرُ بجزءٍ من قوتِها معَ جدتي، وتقومُ بتربيةِ الطيورِ والماشيةِ لدى بيتِ جدي لتوَفيَ بمتطلباتِها، توفِّرُ من نصيبِها في الحليبِ، وغيرِه من خيرِ الأرضِ والمواشِي ؛ لتعطيَه أمُّها للبائعاتِ؛ ليتاجرنَ به في سوقِ المدينةِ، وهذا نظيرُ جزءٍ من المكسبِ، واشترتْ دراجةً للولدِ ؛ حتى يذهبَ لمدرستِه، وعندمَا شبَّ عن الطوقِ اشترتْ دراجةً بخاريةً ليذهبَ لجامعتِه بها.

أكرمَها اللهُ في ولدِها وبناتِها، واستطاعت -بتدبيرِها ومعاونةِ جدتي - أنْ تزوِّجَ من بناتِها منْ تصلُ لسنِّ الزواجِ، ويتقدمُ لها الخطابُ كعرفِهم.،

فكان تكالبُ الخُطَّابِ على البناتِ مثارَ دهشةِ السلفاتِ اللاتي لا تكادُ تُذكر بناتُهن كعرائسَ.

وجهزتْ سبعَ بناتٍ بما يليقُ بهنَّ، أما الأخرياتُ فكُنَّ صغيراتٍ.

صمتتْ "دكتورة شيرين"، وأخذتْ تلتقطُ أنفاسَها بعدَ هذا السردِ الطويلِ المتواصلِ، وسرحتْ مُتخيِّلةً حياةَ هذه الصبيةِ التي قد ترمَّلتْ صغيرةً، وتحملتِ الكثيرَ.

قطعتْ "دكتورة شيرين" تأمُّلاتِي :

تخرَّجَ "محمد" ابنُ عمتي من جامعتِه، وبواسطة معارفِ أبي، واعتماداً على تفوقِه في الجامعةِ وذكائِه تلقَّفتْه شركةٌ مشهورةٌ ؛ فأخذَ مكانةً يستحقُها، ويغبطُه عليها كثيرونَ، وحانَ وقتُ زواجه الذي انتظرتْه عمتي طويلاً ؛ لترى ذريتَهُ، ولكنَّهُ كانَ يُرجِئُ ذلكَ حتَّى يأخذَ حقَّهم كاملاً من أعمامِه، واستقلوا في بيتٍ وسطَ أرضِهمْ بعيداً عن كيدِ نساءِ أعمامه ونكدِهن، وتنفَّستْ "عمتي" متمتعةً بالسعةِ والبراحِ بعد عذابٍ قد دامَ لسنواتٍ عدةٍ.

(٤٥)

مكدسينَ في غرفةٍ ضيقةٍ، وإن كانت مستقلةً بعضَ الشيءِ عن بيتِ العائلةِ.

استردتْ الحقَّ في التصرفِ في ميراثِهم من زوجِها بعد تسعِ سنواتٍ من شحذِ عائده.

"محمدٌ" الطموحُ أراد أن ينمّيَ أرضَه ؛ ليرى الجميعُ أن نبتَ هذه السيدةِ قد أفلحَ في العلمِ، وفي الوظيفةِ وفي الفلاحةِ أيضاً.

وبُنِيَ بعدَ سنتينِ البيتُ الذي طالما حلُمَ وأمُّه به، بيتٌ يتسعُ – كذلك - لأخواتِه المتزوجاتِ وأبنائِهن، ويُقمْنَ فيهِ متَى أحبوا ذلكَ..

تزوَّجَ "محمد" في عرسٍ تحاكَى عنهُ في قريتِهم والقرى المجاورةِ؛ فلقدْ كانَ فخرَ أخوالِه وأعمامِه .

وكمَا عانتْ عمتي في شبابِها من كيدِ النساءِ، استكملتِ المقدَّرَ لها من هذا الكيدِ على يدِ زوجةِ وحيدِها التي غارت من رحمةِ الابنِ على أمِّه وإخوتهِ، كأنَّه يعوضُ الأمَّ عنْ قسوةِ أبيهِ السالفةِ، وقسوةِ ما حدثَ معها بعد وفاتِه، ولعطفِهِ وحنانه رفضَ إخوتُه أن ينقسمَ الميراثُ بينهمْ، أو يأخذنَ مالاً عِوضاً عن الأرضِ، بل تركوا كلَّ شيءٍ في عهدتِه مكتفينَ بما يغدقُه عليهنَّ من ربحِ الإرثِ.

رُزقـتْ عمَّتي بحفـدةٍ كثيرٍ مـن بناتِهـا ومـن "محمد"، واطمـأنَ قلبُهـا على كـل أولادِها سـوى "ليلى".. فرُغمَ زواجِ الأختينِ اللتيْنِ يصْغُرانِها، يتقدمُ العمرُ "بليلى"، ويتقدمُ لها كثيرٌ من الخُطابِ، ولكنَّها لم تتزوجْ بعدُ؛ فالخاطبُ يأتي وأهلُه ، ثم ينصرفون ولا يعودون، وعادتْ لها الحيرةُ وعذابُ القلبِ بعدَ أن ظنتْ أنَّ أيامَ الحيرةِ والعذابِ قد ولَّتْ بلا رجعةٍ، وقد آن لهَا أن تجنيَ الحلاوةَ بعد علقمِ سنواتِ الصبرِ..

تمرُّ سنواتٌ ولا خِطبةَ تتمُّ حتى تصلَ للزواجِ.

فعلتْ كل ما تستطيعُه، من صيامٍ و نذورٍ ومن اللجوءِ لمنْ يفكُّ السحرَّ والأعمالَ، ولم تصلْ لنتيجةٍ تريحُ قلبَها، واحتارَ الناسُ؛ فلقدْ وصلتِ الابنةُ لمشارفِ الثلاثينَ، ولا زالتْ ببيتِ أهلِهَا، فهي نشيطةٌ بارعةٌ في عملِ البيتِ والحقلِ لا تهدأُ إلا عندَ النومِ .. تاجرةٌ بارعةٌ، وصاحبةُ حرفةٍ يدويةٍ حيثُ تقصدُها العرائسُ، لتفصيلِ ملابسِهنَّ..

جاءتْها ابنتُها الكبرى "أسمهان" في يومٍ، وأسرَّت لها بما يمكِنُ أن يكونَ السرَّ في تأخُّرِ زواجِ أختِها حتى الآن.

فلقدْ كانتْ في عرسٍ فسمعتِ النسوةَ يذكرْنَ اسمَ آخر خاطبٍ قدْ تقدمَ لأختِها، ونكَّث في الخِطبةِ بعد أسبوعٍ فقط.

تصنعتْ عدمَ معرفتِها بهِ، و أخبرتْهم بأن لديْها عروساً، ولكنَّها سمعتْ أن بنتَ فلانٍ- تقصدُ أختها- قد رفضتْه، وتريدُ أن تعرفَ سببَ الرفضِ قائلةً:

- أريـدُ أن أطمـئنَّ أنْ لـيسَ لديـه عيـبٌ، أو خلـلٌ مـا، و إلا لما رفضـوه؟ انبرتْ قريباتُه يدافعنَ عنهُ ؛ فهو تتمناهُ زينةُ البناتِ، وأنَّ العروسَ "بنتَ فلان" قد أعجبتْهُ، ولاقتِ استحسانَ أمِّه وإخوته، وكان عازماً على إتمامِ الأمـرِ في الموعـدِ المحـددِ، وتقـديمِ الـذهبِ بعـد أسـبوعينِ مـن رؤيتـهِ للعروسِ، ولكـنْ أتى منْ يخبرُ أمَّه وإخوتهِ : أنَّ هـذهِ البنـتَ متعلقـةٌ بأمِّها وبيتِها، ولن تستقرَ عندَهُ، وسترغبُ يومياً في زيارةِ أمِّها، كما أنها كسولةٌ لا ترغـبُ في الحركـةِ، وتنتابُهـا عصـبيةٌ وهيـاجٌ كـلَّ فترةٍ، ولا احـدَ يعـرفُ سببَه..و.........و........

(٤٦)

ومصدرُ هذا الكلامِ موثوقٌ به " زوجة أخيها" التي تعيشُ معها في نفسِ البيتِ ، وتعاني من بلادتِها وهياجِها من سنواتٍ.

وما إن سمعتْ هذا حتى تعذَّرتْ من النساءِ في العرسِ؛ فهيَ لم تُطِقْ أن تجلسَ بعدَ ما سمعتْهُ، وعادتْ لبيتِها وهي لا تكادُ تستقرُّ.

فما إن انجلَ الصباحُ حتى أتتْ لتخبرَ أمَّها بما سمعتْ وعرفتْ.

معقولٌ أن يصْدرُ هذا عنْ "ناهد"؟؟ تفتحتِ العيونُ بعدَ هذهِ المعرفةِ، وفهِمتِ الكثيرَ مما قد جهلوه سابقاً، وما كانَ خفياً من كيدِ وسلوكِ زوجةِ الابن قد انجلَى، وأنَّها تعطِّلُ زواجَ "سعاد " للاستفادةِ من عملِها في البيتِ والحقلِ ومن ناتجِ عملِها وتجارتِها في البيتِ.

تأكَّدَ لهمْ هذا معَ تقدُّمِ خاطبٍ آخرَ وانصرافِه بعد أيامِ عن الخِطبَةِ.. وكعادةِ "عمَّتي " الصابرةِ المتسامحةِ، أرادتْ أن تتأكدَ من التهمةِ الموجهةِ لزوجةِ ابنِها، فأرسلت لابنتِها بأن تذهبَ إلى بيتِ أهل الخاطبِ، وذهبتْ " أسمهان" إلى بيتِ أهلِ الخاطبِ، واستحلفتْهُمْ باللهِ أن يخبرُوها ما الذي صرفَهم عن الخطبة، وبعد إلحاحٍ عرفتِ السببَ، فهوَ نفسُه ما سبقَ وذكرتْه لها قريباتُ الخاطبِ الذي قبله.

وألْجمتِ الحيرةُ "عمتي" وبناتِها اللواتي علمنَ بما حدثَ .

أتحطّمُ " ناهد" حياةَ أختِ زوجِها كيداً ؛ ولتستفيدَ بها في خدمةِ البيتِ لترتاحَ هي؟

لم أتمالكْ نفسي وأسرعتُ أسألُها إثرَ صمتٍ قصيرٍ منها:

- وكيفَ تصرفتْ عمتُك في هذا؟

أجابتني :

- أخبرتْ عمتي أبي وأعمامي حتى يجدوا لها حلاً، فهي لا تريدُا أن تصدمَ ابنَها الذي تعرفُ كمْ يعشقُ زوجتَه، إنَّ خبراً كهذا سيحطمُ قلبَه وبيتَه فهوَ يحنُو على أمِّه وإخوتِه، و في نفسِ الوقتِ يحبُّ زوجتَه.

اتفقَ أبي وعمي الصغيرُ عنهُ على أن يتقدمَ ابنُ عمي الأرملُ حديثاً لخطبتِها "ليلى" وحدثتِ الكثيرُ من الأمورِ لفكِّ هذهِ الخطبةِ ولكنْ قد تكاتفَ أبي مع أعمامي لإتمام الزيجةِ في أقصرِ وقتٍ.. حتى تمتْ واطمأنت " عمتي" .

" محمد" ابنُ عمتي كان ينتقلُ من نجاحٍ لنجاحٍ، و لم يكتفِ بوظيفتهِ، وما تدرُّهُ عليه الأرضُ من خيرٍ، بلْ دخلَ مع أصهارِهِ في التجارةِ والنقلِ.

وكمَا أتى الخيرُ كنقودٍ، أتى الابتلاءُ كمرضٍ هاجمّهُ، ولمْ يعلمْ أيُّ أحدٍ به حتَّى ظهرَ جلياً بعد سنتينِ من الصمتِ، وظهرتْ عليهِ أعراضُ النهايةِ، فصارحَ أُمَّه وإخوتَهُ بكلِّ معاملاتِه التجاريةِ وربحِ الأرض حتى تعرفَ كلُّ منهنَّ حقَّها، فأمرُ اللهِ سيأتي في أيِّ لحظةٍ.

اندهشا بأنه قـدِ اسـتدانَ ليعـزِّزَ تجارتَـه، وأنَّ التجـارةَ الجديـدةَ باسـمِ زوجتِهِ بشكلٍ صوريٍ؛ لأنهُ موظفٌ، ولا يحقُّ له العملُ بالتجارةِ.

(٤٧)

وأنَّ كلَّ الـدينِ سيُسَـدَّدُ مـن ربحِ التجـارةِ ولْيطمئنـوا، وكانـتِ الأرضُ رهـنٌ للديْنِ، وكلٌّ منهُنَّ ستأخذُ حقَّها.

كانَ مطمئناً واثقاً بزوجتِهِ، ولكنَّ النارَ تأجَّجتْ في قلبِ الأمِ والإخـوةِ فمنْ كادتْ ل "ليلى"حتى لا تتزوَّجَ، وعطّلت خطبتِها عشراتِ المراتِ، لـن تتـورَّعَ في نهبِ الحقـوقِ والإرثِ، كيفَ يُخبرْنَ "محمداً " بهذا والموتُ يلاحقُ أنفاسَـه؟ وكيفَ تَحمي كلٌّ منْهُنَّ حقَّها؟

ومـاتَ " محمد " وأقعـدَ الحـزنُ أمَّـه، و تكـاثرتْ أمراضُـها ؛ فلقـدْ تهـدمتْ كلُّ آمالِها، وانطفأَ النورُ الذي قدْ أضاءَ حياتَها .

ودخلْنَ في مشـاكلَ ماديةٍ مع زوجـةِ الابنِ، فلقـدْ رفضتْ دفـعَ الـديْنِ لرفـعِ الرَّهنِ عنِ الأرضِ ودياًّ كما اتفقتْ مع زوجِها قبلَ وفاتِه، وكادتْ الأرضُ أن تضيعَ، ولكـنْ بالحيلـةِ والصبرِ والتهديـدِ وبمسـاعدةِ " سـعيد" ابـنِ " محمد " الذي كانَ عاقلاً يحِبُّ الحقَّ.

فوقفَ أمامَ أمِّه لحمايةِ حقِّ جدتِه وعماتِه واعتبرَ أنَّ هذا دينٌ على والـدِه المُتوفى، لا بُدَّ من سدادِه.

وظهرَ شرُّ "ناهد " للعيانِ، ولم تعدْ تخبِّأْه، ولكنَّ ابنَها جمعَ إخوتَهُ وحـدوا مـن هـذا الشـرِّ، وألجمـوهُ، فوافقـتْ على سـدادِ الـدينِ، ثـم إعـادةِ الأرضِ لأصحابِها وتقسيمِها عليهنَّ..

أمَّا " عمتي " فلم تتحملْ كلَّ هذا، وتوالتْ عليها الهمومُ تِباعاً، لقدْ ماتَ لها حفيدٌ شابٌ ابنُ ابنةٍ لها، وأصبحتْ تنْسى أشياء، وتتذكرُ أخرى.

لم يتوقَّفْ كيدُ زوجةِ الابن التي تقيم معها في نفسِ البيتِ رُغمَ وَعي أحفادِها منْ "محمد" لذلكَ، ومحاولتِهم المستمرةِ لكبحِ مكرِ أمِّهم بما لا يجعلُهم يُخطِئوا، أو يَمسُّوا حقوقَها لديْهم كأمٍّ، وكانتْ عماتِي يحرصنْ أن لا تصلَ للأحفادِ ما يمكنُ إخفاءَهُ من مكائدِها .

باتتْ عمَّتي في سنِّ الثمانينَ حبيسةَ الأمراضِ والشللِ، وأصابَها مرضُ النسيانِ " الزهايمر"، كانت تعِي كلَّ شيءٍ وتعقلُه، ولكنْ في أوقاتٍ كثيرةٍ تتواجدُ فجواتٌ في ذاكرتِها، خافُوا عليها أن تتفاقمَ حالتُها؛ فأصبحوا يُخفونَ عنها أيَّ مصابٍ أو خبرٍ سيءٍ.

بُتِرتْ قدمُ ابنتِها "سهام" من مضعفاتِ مرضِها بالسكري؛ فحرصتِ الابنةُ ألا يصلَ لأمِّها خبرُ ذلكَ، وكانتْ تُهاتفُها فقط، واعتمدتْ على نسيانِ الأمِ.

تسلَّلتْ عبرةُ لوجنةِ " دكتورة شيرين" وهى تتنهدُ : حتى عندمَا ماتَ أبي الذي كان يبرُّ عمتي، ويزورُها أسبوعياً؛ لأنَّنا في مدينة بعيدةٍ، أخفَوا الخبرَ عنْها، وأحزانٌ كثيرةٌ قد أخفوْها ظناً أن ذلكَ أفضلُ لها، وحتى لا تتفاقمَ أمراضُها وأوجاعُها.

ولكنَّها عندمَا كانتْ تتذكرُ، وتسألُ عن ابنتِها وتشكو جحودَها، وتتفقدُ الأخَ قائلة:

لم أرَه منذُ الشتاءِ، أينَ هوَ؟ أنسيَني؟؟

(٤٨)

وكمْ ألحَحْتُ عليهمْ أرجوهم أن يخبروها بوفاةِ أبي لتترحَّمَ عليهِ، و تدعو لهُ عندمَا تذكرُه، ولا يحملُ قلبُها همَّ نسيانِها وسلوِّها؛ فيَطمَئِنُّ قلبُها بأنَّ ما منعهُ عنها هو الموتُ، وليس النسيانُ أو جحودُ الأخ.

لم أستطعْ زيارتَها آخر سنتينِ في عمرها، كنت أخشى أن تسألَني عن أبى، ماذا سأقولُ لها؟؟أكذبُ مثلَهم، وأسمعُ شكواها منهُ، و أرى دموعَها وآلامَها من الجحودِ وهوَ الأحوجُ للدعاءِ.

اشتدَّ عليها النسيانُ حتى أمستْ تعرفُ من حولَها بصعوبةٍ، ولا تذكرُ إلا الماضي البعيدَ، أمَّها وأباها، وإخوتَها، وابنَها.

وفاضتْ روحُها وسطَ بناتِها العشرِ وعشراتِ الأحفادِ، وهى لا تعرفُ أياً منهم، أو تتذكره.

((وحدَنا وُلِدْنا.. وحدَنا تعذبْنا.. وحدَنا تطهرْنا بنارِ الألم. وحدَنا نموتُ."*

وهكذَا ترينَ يا " سلوان! " أنَّ الموتَ واحدٌ. سنموتُ بمفردِنا، ولن يفرقَ معنَا هل نموتُ بدونِ أهلٍ وأحبابٍ حولَنا، أو نموتُ وكلُّ منْ نحبُّهم حولَنا؟

قد ماتتْ صباحُ وهيَ لا تعرفُ أينَ هيَ ومن معها، و ماتت عمتي، ولا تعرف أين هيَ، ومن معها، الموتُ واحدُ.. اللهم أحسِنْ ختامَنا.

....

* ريلِكة

(٤٩)
مِرْآةٌ سادسةٌ

خرجتُ من غرفةِ الأطباءِ، وقد تمالكتُ نفسي وأعصابي من الفزعِ، وإنْ كانَ قلبي قدِ امتلأَ حدَّ الثُّمالةِ حزناً وأسًى .

لا يهمُّ - وقد أتتِ النهايةُ -أَحَوْلَنا أحبابُنا أمْ نعيشُ بعيداً عنهمْ؟

حقاًّ تساوتْ نهاياتُ البعضِ رغمَ اختلافِ البداياتِ؛ فأهمُّ شيءٍ أن نرضَ، وتطمئنَّ نفوسُنا.

يذكِّرُني هذا بهنيَّةَ" التي طالما تساءلتُ عندما أرى رضاها، وسكينتَها وهناءَها.

" هنية! ".. هلْ لحياتِك من اسمكِ نصيبٌ يا هنيَّةَ القلبِ؟

عرفتُ بعضَ حكايتِها قبلَ أن ألقاها وأعرفُها أكثرَ.

كانتْ بدايةُ المعرفةِ عن طريقِ صديقٍ على صفحةٍ أدبيةٍ أتابعُها عبرَ"الفيس بوك" وقد خرجَ عن أهدافِ المجموعةِ لأوَّلِ مرةٍ على غيرِ العادةِ، طالباً ممنْ يستطيعُ أن يساهمَ بمبلغٍ ماليٍّ لسيدةٍ جارةٍ له عاجزةٍ عنِ الحركةِ ومصابةٍ بأمراض كثيرةٍ.

تسكنُ في غرفةٍ يمتلكُها أخوها، ويتقاضى عنْها إيجاراً، وهي شبهُ معدمةٍ، تتقاضى معاشاً من الضمانِ الاجتماعي لكبرِ سنِّها وعجزِها، وتستنِدُ على أيدي أهلِ الخيرِ لتقبِضَ معاشَها، وتعتمدُ على الجيرانِ في مساعدتِها.

استغاثَ بِنا هذا الصديقُ لنتبرَّعَ، ونجمعَ لها مبلغاً لشراءِ أدويَتِها، وما يقيمُ حياتها.

فزِعتُ لهذهِ السيدةِ ؛ أنها لا تحتاجُ للمالِ فحسب، بل تحتاجُ للرِّعايَةِ والحنوِّ.

ماذا سيفعلُ المالُ؟ تشتري الدواءَ والطعامَ وهي العاجزةُ عنِ الحركةِ، منْ سيرْعاها ويطعمُها ويهتمُّ بصحتها؟!!.

أخبرتُه أن يُعاونني في نقلِها للدارِ معي، وستجدُ الرعايةَ الطبيةَ والنفسيةَ ومن يساعدُها على الحركةِ، ويهتمُّ بها.

ستجدُ فينَا الألفةَ والأنسَ بدلاً من بقائِها في غرفتِها وحيدةً تستجدِي الطعامَ والاهتمامَ.

وأتتْ " هنيَّةُ " وملامحُها مرهَقةٌ، ذليلةً، منعزلةً، عاجزةً عنِ الحركةِ إلا بمساعدةٍ.

في البدايةِ كانتْ تنفرُ من محاولاتِنا الاقترابِ منها.

وتدريجيَّاً تبدَّلّ حالُها، وظهرتْ تباشيرُ الصحةِ على وجهِها، وتألُّقِ نورِ عينيْها يُظهرُ نفساً تواقةً للبَشرِ والاختلاطِ.

اهتمامُنا بها ولو بالتحيةِ والأسئلةِ العاديةِ أو تقديمِ المساعدةِ لها لتجلسَ أو تنتَقلَ من مكانٍ لأخرَ، أو بضعة ورودٍ أهديها لها في غرفتِها، قد أزال حاجزا وضعته حولَها ناجماً عن حاجتِها وإحساسِها بالذلِّ والعجزِ.

تفتَّحتْ كزهرةٍ أُهملتْ حتى ظنَّ أنها ذبُلتْ وفنِيَتْ، و تبسطت معنا في الحديث، واستطاعتْ بعدَ فترةٍ أن تتنقلَ في غرفِ الدارِ بخطواتٍ بطيئةٍ بعدمَا كانتْ تُحمَلُ على الأيدي والكراسي.

هذه السيدةُ أقعدتْها الهمومُ والحاجةُ وقلةُ الاهتمامِ والظلمِ.

(٥٠)

- عشتُ أياماً حلوةً.

هكـذا قالـتْ لي "هنيَّـةُ" مسـامِحةً ومتناسـيةً أضـعافاً مـن أيامِهـا المُـرَّةِ التعيسـةِ.

- كان أبي عاملُ بناءٍ وكذلِكَ إخوتي، وبالتـالي كانَ زوجي من نفسِ المهنـةِ، عـاملَ بنـاءٍ وكان رحّـالاً يعمـلُ يومـا، ويقعـدُ عشـراتٍ، وقـد جعلني زوجي هنيئةً، وأسعدني.

يرحمهُ الله إن كان ميتاً.

مكسبُه المـاديُّ كانَ كبيرًا، ولكـنَّ أصدقـاءَ السـوءِ الْتفـوا حولَـه، وعـوَّدُوه على سهراتٍ مُشينةٍ يتناولُ فيها المسكراتِ والمُخدِّراتِ ؛ فتبدَّلَ حالُـه منَ الحنانِ عليَّ إلى القسوةِ، من النشاطِ والهمةِ في العملِ للكسلِ والتبلُّدِ.

وزادَ من قسوتِه عدمُ الإنجابِ، قسى عليّ كثيراً ؛ بفعلِ ما يتعاطاهُ، فهوَ في الحقيقةِ طيبُ القلبِ جداً.

ألحَّ عليَّ حتى أجدَ علاجـاً للإنجـابِ وعنـدما اكتشـفَ أنَّ عـدمَ الإنجـابِ بسببِ ما يتعاطاهُ زادتْ قسوتُه وتقاعدَ عن العملِ .

مـاذا أفعـلُ؟ بـدأتُ في مسـاعدةِ جـاراتي المُوسـرَّاتِ في عمـلِ التنظيـفِ والغسـيلِ في مقابـلِ طعـامٍ أو كُسـوةٍ، لكنَّـه كـانَ يريـدُ نقـوداً ليسـهرَ ويتعاطى، وباعَ كل شيء بالبيت؛ فاضْطُرِرتُ أن أعملَ خارجَ الحارةِ بأجرٍ.

كان لديَّ حياءٌ في البدايةِ أن أُخبرَ أحداً بعملي.

هـو لـيسَ أعمى أو غبيـاًّ، فمِـنْ أيـنِ تـأتي لي النقـودُ و هـو يعـرفُ عفـافِي وطهارتي؟

فهم ولـم يهـتمْ إلا بـالنقودِ التي آتي لـه بهـا في نهايـةِ اليـومِ، ومعَهـا طعـامٌ جادتْ به عليَّ مخدومَتي .

يختطفُ النقودَ والطعامَ حتى قبلَ أن أدخلَ من البابِ، يلتهمُ الطعامَ، ثم يخرجُ ليشتريَ السُّمَّ الذي يتناولُه، ويظلُّ طوالَ الليلِ في البيتِ أو عِندَ أصدقاءِ السوءِ، وينامُ في الصباحِ عندَ خروجِي لشقائِي اليومِي.

كنـتُ صـغيرةً، نشـيطةً وأمينـةً؛ فتـدفقتِ النقـودُ بـين يـدي، ولكنَّـه كـانَ يبدِّدُها على هدمَ صحتِهِ، حتى أصبحَ كالمومياءِ.

زادتْ قسـوتُه كلما زادَ عجزُه، تحملتُه ولم أجدْ ما يشجِّعُني حتى أبتعدَ عنهُ، وأهنأَ بمـالي الـذي أكسبُه بالتعبِ والشـقاءِ، ورضيتُ بحـالي، وقلـتُ: ظِلُّ رجلٍ ولا ظلَّ حائطٍ .

ومـرتِ الأيـامُ، وتضـاعفتِ الأعـوامُ على بـدني تنهكُـه مـن طـولِ وقسـوةِ الشـقاءِ، فظهـرتُ أكبرَ مـن عمـري، وكنـتُ أتحاملُ على تعبِي حتى أقـومَ بتوفيةِ مطالبهِ، وأحـاولُ جاهـدةً أن أبـدوَ في مظهـرٍ جيـدٍ حتى لا ترفضَني مخدوماتى.

لا وقتَ للتعبِ ولا وقتَ للشكوى.

حتى أفقتُ في يومٍ وأنا ممدَّدة على الأرضِ في شقةِ إحدى مخدوماتي التي تحاولُ إفاقتي، وقد تملَّكها الخوفُ.

- اذهبِي لطبيبٍ! ماذا بكِ؟ لو أنتِ مريضةٌ ألزمي بيتَك.

دارتْ بيَ الدنيا، ألزمُ بيتي؟ ومن أينَ أعيشُ؟

أصرَّتْ أنْ أذهبَ لقريبِها الطبيبِ، وبعدَ تحاليل عرَفتُ أنى مريضةٌ بالسكري والضغط.

(٥١)

أوصى الطبيبُ بالراحةِ الجسديةِ والنفسيةِ ....كيف؟؟؟... وانتظامٍ في الطعامِ والدواءِ....متى؟..

اطمأنَّتْ مخدومتي أن مرضي غيرُ معدٍ، وأستطيعُ القيامَ بالخدمةِ والتنظيفِ، فذهبَ خوفُها مني، وإن زادتْ من رقابتِها على عملِي ظناً منها أني سأستغلُّ مرضي واستغلُّ عطفَها المفقودَ.

ومرتِ الأيامُ و لا راحةَ نفسية أو جسدية، بلْ زادَ عملي ؛ لأستطيعَ توفيرَ دوائي وطعامي بالإضافةِ لطلباتِ زوجي التي لا تنفَذُ، وزادتْ قسوتُهُ بزيادةِ مرضي ووهني.

أنهكتني الخدمةُ بالبيوتِ، وظهرتْ أعراضٌ لمرضي، التي كانَ يمكنُ أن أجتنبَها بالراحةِ والرعايةِ.

آلامٌ في الظهرِ، ثقلٌ في القدمينِ والحركةِ إلى آخرِه من أعراضٍ.

أتتني مخدومتي وأنا أرتاحُ ألتقطُ أنفاسي في وسطِ العملِ قائلةً لي:

- خُذي قسطاً من الراحةِ في بيتِك لمدةِ أسبوعينِ أو شهرٍ، لقدْ اتفقتُ مع أختي أن أستعينَ بخادمتِها حتى تستعيدي صحتَك، وها هو مرتبُ شهرٍ كاملٍ.

هكذا قرَّرتْ مخدومتي رُغمَ إلحاحِي عليها وتأكيدِي أنى سأبذلُ جهداً أكثرَ، وإنَّ ما بي أعراضُ وستمرُّ، ولكنَّها أخبرتْني: أنها تعودتْ على مستوى معينٍ

في النظافةِ والنظامِ في بيتِها ولا ترضى بالأقل، وأنى كبُرتُ فجأةً وعجزتُ عن حركتي، ونشاطي السابقيْن، ودائِماً مهمومةٌ وتعيسةٌ وهذا يجلِبُ لها إحساساً سلبياً سيئاً.

وطبعاً أخبرتْ باقي مخدوماتي بقرارِها هذا، وفعلن مثلها!

كيف سأعيش؟! من أينَ آتي بطعامي ودوائي؟؟ قالتْها لي نفسِي، وأبى لساني أن يصرِّحَ بها حياءً مني.

حاولتُ كثيراً أنَ أعملَ أيَّ عملٍ، وأعملُ يوماً أو اثنينِ ويتكررُ نفسُ الكلامِ والأعذارُ.

سُدتْ في وجهي كلُّ الطرقِ.

جلستُ في بيتي لا مالَ ولا طعامَ ولا دواءَ، سوى طبقٍ به القليلُ من الطعامِ تجودُ به إحدَى الجاراتِ وترسلُه مع ابنٍ لها.

ليْتني ادخرتُ ليومٍ كهذَا، وكيفَ أدَّخرُ وزوجي كان يستولي على كلِّ ما أكتسبُه؟ ومرتِ الأيامُ عجافاً صعبةً.

استيقظتُ في ليلةٍ مستغرِبَةً الهدوءَ حولي .

أين صوتُ تلكَ الأرجيلِة، سعالُ زوجي وسبابُه، ساهرُ الليلِ الأبديِّ؟ لم أجدْه، ومرَّتِ الأيامُ والبيتُ فارغٌ منهُ، واشتدَّ بيَ الجوعُ والقلقُ عليهِ، وتحاملتُ وكافحتُ حتى وصلتُ للبابِ، وسألتُ عنهُ الجيرانَ، واستغربوا عدمَ وجودِه و إغلاقَ البابِ لعدةِ أيامٍ حتى ظنُّوا أنَّنا لسنَا في البيتِ، أوصيتُهم أن يسألوا عليهِ في المقهى، وقالواْ: أنهُ لم يأتِ من أيامٍ .

رأفَ بعـضُ الجيرانِ بحـالي، وكانـتْ هـذه ترسـلُ لي بطبـقٍ مـن الطعـامٍ أو بعضِ الخبزِ وفى عينِ كلّ منهنَّ ألمٌ وحسـرةٌ على المسكينةِ التي هربَ منْها زوجُها بعدمَا هربتْ

(٥٢)

منْهَا صحتُها وعافيتُها وانعدمَ مالُها، وهكذا فهمتُها.

هـربَ مني ومـنْ مرضـي ومسـؤوليتي، هـربَ ممـنْ تحملـتُ خدمتَـه وخدمتُ الناسَ حتى أستطيعُ أن أكفيَ نفسي وأكفيه.

هـربَ مـنْ تحملـتُ لأجلـهِ أن لا يكـونَ لي ولـدٌ أو بنـتٌ كي يُجمِّلـوا حيـاتي الجرداءَ معهُ، ورضيتُ بالنصيبِ، ولم يرضَ النصيبُ بي.

أهلُ الخيرِ من جيراني قد أحضروا لي ملابسَ معارفِهم ؛ لأغسلَها في البيتِ ومنْ أجرِها أعيشُ.

كلَّـتْ يـدي، وزادَ مرضـي، ولكنِّي جاهـدتُّ قـدرَ طـاقتي، ومـرتْ سـنواتٌ.

واللهِ يـا مـدام "سـلوان"! رغـمَ الفقـرِ والمرضِ والحسـرةِ كانَ هنـاكَ سـعادةٌ ورضا في قلبي بما قسمَه لي اللهُ، هي حسـناتٌ يـدَّخرُها ليَ اللهُ ؛ لأفـوزَ بجنتِـه وعفوهِ.

سـنواتٌ قـد أَخـذتْ مـن عمـري وقـوتي الكثيرُ، ولكنَّهـا لـم تأخـذْ مـنْ إيمـاني برحمةِ اللهِ، و أني أفضلُ من غيري بكثيرٍ .

ضاعتْ صحَّتِي وقوَّتي.

وسقطتْ دمعةٌ كانتْ حبيسةً حائرةً في عينيْها.

بادرتُها :

- للسنِّ حكمُه، والجسدُ مهما جاهدَ له قدرةٌ محدودةٌ وموعدٌ تقلُّ فيهِ هذهِ القدرةُ، وتكادُ تنعدمُ.

- نعم كبُرتُ وأصابني العجزُ.

أهلُ الخيرِ حاولُوا الوصولَ لأخي الوحيدِ الباقي، وقد جاءَ مسرعاً بعدَ قطيعةٍ طويلةٍ بسببِ زوجي، وما كانَ عليهِ من سوءِ خُلقٍ.

أخبرني أن من حقي معاشاً لأنهُ لا عائلَ لي ولهجرانِ زوجي من سنواتٍ، وكأنَّهُ مفقودٌ.

- عندي غرفةٌ في بيتِي استأجريها لتكوني بجواري وأرعاكِ .

كمْ عزَّ عليَّ فراقُ جيراني، كمْ بكوْا وبكيْتُ عند الفراقِ.. عِشرةُ السنين، كم تحمَّلوني وساعدوني وخفَّفوا عنِّي رغمَ ضيقِ حالِهم.. بلقمةٍ ..بكلمةٍ طيبةٍ ونظرةِ عطفٍ.

عشتُ غريبةً في حجرةٍ تحتَ السُّلَّمِ في بيتِ أخي بعدمَا كنتُ في بيتي الثاني وحيدةً، ولكنِّي محاطةٌ بقلوبٍ وعُيونٍ تحوطُني بالاهتمامِ.

بعدَ وقتٍ استطعتُ أن أحصلَ على معاشٍ أخذَ منهُ أخي ما دفعهُ للمحامي، وأجرةَ غرفتي.

كنتُ أتنقلُ يوماً في الشهرِ مستنِدةً على الأيدي ؛لقبضِ معاشي وصرفِ دوائي من التأمينِ الصحي.

كثُر همِّي و وحدتي فزادَ مرضي وعجزي، ورفضتْ زوجةُ أخي أن تُعِدَّ لي أيَّ طعامٍ أو أن يطِلَّ على أولادِها.

ولم يخلُ الأمرُ من نسوةٍ من الجيرانِ عطفوا عليَّ بسويعاتٍ نتبادلُ فيها الحديثَ، أو تجلِبُ لي إحداهُنَّ جلباباً كهديةِ العيدِ أو كسوةِ شتاءٍ:

- نحنُ إخوةٌ، وهلْ أقدِرُ على بلعِ اللقمَةِ إن لمْ تتذوقي منها؟

أيامٌ حلوةٌ، وقلوبٌ أحلَى، هذا رِضا وحبٌّ منَ اللهِ.

(٥٣)

حتى جاءني جاري الشابُّ، وقالَ: يا خالة! "هنيَّة" ما رأيُكِ أن تذهبي لبيتٍ كبيرٍ فيه نساءٌ في مثلِ عمُرِك، وهناكَ الطبيبُ والطعامُ والدواءُ.

ضحكتُ وقلت له: هل سأموتُ يا "أحمد "؟؟ سأذهب إلى جنَّةِ ربي أخيراً!!

ضحك، وقال:

- لكِ طولُ العمرِ يا خالةُ! ما تعيشين فيه ليسَ بحياةٍ، لكِ معاشٌ، ولكنكِ لا تستفيدينَ منهُ أو يكفيكِ، ولوِ اكتفيتِ بأموالِ المعاشِ الضئيلةِ منْ يهتمُّ بكِ؟ أنتِ شبهُ قعيدةٍ وكلَّمَا مرَّتِ الأيامُ يزدادُ عليكِ مرضُكِ الذي يحتاجُ لرعايةٍ في المعيشةِ والطعامِ و انتظامِ الدواءِ.

- وأينَ هذهِ الجنةُ يا "أحمد "؟ و منْ أينَ لي بأجرتِها وطعامي والطبيبِ والدواءِ؟ معاشي لا يكفي يا بُنيِّ.

- لا تقلقي، فدارُ المسنينَ تقبلُ حالتَك، ويرحبونَ بكِ، وأعرفُ سيداتٍ محترماتٍ بها.

و قدْ وافقَ أخي عندمَا عرضَ عليه " أحمدُ " الأمرَ، فرحِ لأني سأتلقَّى رعايةً واهتماماً، وسيرتاحُ من ناحيتِي، و سيجدُ مستأجراً لغرفتي بأجرٍ كبيرٍ.

والحمدُ للهِ صبرتُ ونلتُ، و ربي قد جزاني خيراً في حياتي، وأرجوهُ أن يُحسنَ ختامي وأنالُ جنتَهُ في الآخرةِ.

كما أن عملي هنا بالدار في التنظيفِ تارةً، وفي الطهيِ تارةً أخرى قد أعادَ لي الهدفَ لأحيا؛ فأنا لا أعملُ من أجلِ لُقمةِ العيشِ، بلْ أَعملُ لأني أحبُّ هذا المكانَ وأهلَه، وخدمتِي لهم تحييني.

قلتُ لها :

- هنيئا لكِ بقلبكِ الطيبِ المتسامحِ يا "هنية! ".

وتذكرتُ مقولةً قرأتُها يوماً وعلِقتْ بذهني:

"إن كانتْ هدايا السماءِ قدِ انهمرتْ عليكَ بعد طولِ قهرٍ ومعاناةٍ، فلا عجبَ في ذلكَ فإنَّما هوَ وعدُ اللهِ الحقّ للمستضعفينَ، وإنْ كنتَ قد أصبحتَ ترفلُ الآنَ في آلاءِ ربّك بعد حرمانٍ و مسغبةٍ، فلا عجبَ؛ فإنَّ نِعمَ الإلهِ على الصابرينَ كثيرةٌ، فبأيِّ آلاءِ ربهمْ يكذِّبُ المتعجلونَ والقانطونَ؟"

----

*عبد الوهاب مطاوع

(٥٤)

مِرآةٌ سابعةٌ

ها هوَ قد وشكَ اليومُ على الانتهاءِ، فبعدَ صلاةِ العشاءِ وتناولِنا للطعامِ نتوجَّهُ لغرفةِ المعيشةِ حيثُ نقضي بعضَ الأمسياتِ قبل النوم.

غرفةٌ كأنَّها في بيتٍ مرفَّهٍ راقٍ ولكنَّها أكبرُ حجماً.

اجتهدْنا أن نجعلَها أليفةً عائليةً، ووضعتْ فيها كل منا أشيائَها الحبيبةَ التي أحضرتْها من بيتِها.

أردْنا أن نشعُرَ أننا نعيشُ في بيتِنا، وهُنا تقُصُّ كلٌّ منَّا ما بها، ما يُؤلمُها، ما يُفرحُها، الماضي.

في هذا العمرِ يأخذُنا إحساسٌ رهيبٌ بالوحدةِ والوحشةِ، فلعلَّ مِثلَ هذه الأشياءِ البسيطةِ أن تخففَ من خوفِنا، وتقللَ من إحساسِنا بالغربةِ والوحشةِ، نُدفئ قلوبَنا التي يتسلَّلُ إليها الجحودُ والنكرانُ، ونتسامرُ كي لا يتسربَ إلينا إحساسُ أن العمرَ قد مضى، وقد تمتِ الرسالةُ، ولا حاجةَ لأحدٍ بنا، بعد أن كُنَّا محورَ حياةِ عائلاتِنا .

لا نجدُ وقتاً لأنفسِنا، وأنفسُنا وحيدةٌ مهملةٌ تحاولُ أن تتشبَّثَ بأملِ أن هُناكَ من يحتاجُنا حتى ولو كمستمعٍ لفضفضاتِ القلبِ، وتنطلقُ ضحكاتُنا العفويةُ.

أنظرُ كعادتي بعينِ الطائرِ من علٍ، فأُراهِنُ فتياتٍ صغيراتٍ يمرحْنَ، ويلهوْنَ، ويبكينَ، ويتنهدنَ، ولكنَّ الضحكاتِ سرعانَ ما تنطلقُ، وتمتدُّ الأيدي؛ لتمسحَ دمعاتٍ لا فائدةَ من سكبِها.

فتياتٌ يلبسنَ أثواباً تنكريةً من الشَّعرِ الأبيضِ والجلدِ المتجعِّدِ والحركاتِ الضعيفةِ الواهنةِ..

حقيقتُهنَّ هيَ ما تظهرُ في عنفوانِ الضَّحكةِ وملاحةِ الطُّرفةِ، وقد نسينَ لبُرهةٍ الماضي ولا يفكرنَ بالمستقبلِ، بل يتشبَّثنِ بالحاضرِ، و بهذه الصُّحبةِ الدافئةِ، بتجمُّعِ تلكَ القلوبِ التي ترتجفُ كلٌّ منها خوفاً على الأُخرى، و بالتفهُّمِ والاهتمامِ الخالصِ. بالفهمِ والمشاركةِ وضحكةٍ صافيةٍ تخرجُ من قلبٍ نسى أو تَناسى آلامَه..

كنَّا نسميهَا "غرفةَ الاعترافِ"ولكنَّا وجدْنا أنَّ الاسمَ به شراسةٌ ومُخيفٌ.. والآن اسمُها " غرفةُ الحياةِ": لأنَّ فيها نستعرضُ حياتِنا بِحُلْوِها ومرِّها، هذهِ الجدرانُ رأتْ وجوهاً عدةً لحيواتٍ مختلفةٍ..

في غرفةِ الحياةِ وجدْنا الظالمَ والمظلومَ، ولم يكن بنا كُرهٌ لأحدِهم، وحبٌّ للآخرِ، لقدْ كبرنَا على تلكِ التصنيفاتِ.

ننفعلُ مع الأحداثِ، ننتقدُ، نواسي، و لكنَّنا لا نحكمُ على سلوكٍ مرَّ.

فلقدْ تشابهْنا جميعاً في النهايةِ .
صرنَا منسياتٍ و منبوذاتٍ، فنحاولُ أن نجمعَ شتاتَ النفوسِ المهزوزةِ، ونُرمِّمُها حتى تقدرَ أن تعيشَ آخِر أيامِها بنفسٍ مطمئنةٍ .

(٥٥)

كمْ رُمِّمتِ الابتساماتُ والكلماتُ الطيباتُ فينا، ولنا آلامٌ و جروحٌ شقَّقتْ نفوسَنا وهدَّدتْها بالانهيارِ.

وعلى ذكرِ غرفةِ الحياةِ تواردتْ بعقلي حكايةُ مدام "حياة " وهي تحكيها لنا برأسٍ أشمٍّ مرفوعٍ، جالسةً على كرسيِّها المتحركِ الكهربائيِّ، وبيدِها علبةٌ من السجائرَ الفاخرةِ التي طالما قد حَرَّمْنا عليْها أن تُدخِّنَها إلا في غرفتِها الخاصةِ أو الحديقةِ .

بقايا جمالٍ باهرٍ، وكثيرٌ من الدلالِ في حركاتِها وسكناتِها، وحركاتُها مدروسةٌ بدقةٍ ملكيةٍ، وتجبرُ الجميعَ على إطاعةِ حركاتِها وإيماءتِها.

تحسُّ في كلِّ كلماتِها وحركاتِها بالجمالِ والدلالِ والحيويَّةِ الممزوجينِ بالتعالي بدونِ قصدٍ أو مبالغةٍ، يخالطُ كلُّ ذلكَ هماً في قلبِها لا يبرأُ، وكلَّ هذا حبيسٌ في كرسيٍّ متحركٍ.

بدأتْ بقولِها:

- أنا غيورةٌ وهذا طبعِي، وربَّما لذلكَ كانَ هذا جزائِي.

ماذا أفعلُ؟ لا أقدرُ على تغييرِ طبعي فلقدْ وُلدتُّ كبنتٍ وحيدةٍ وسطَ ستةِ إخوةٍ ذكورٍ.

الصغرى المدللةُ مركزُ اهتمامِ أمي وأبى وإخوتي وأعمامي كذلكَ، أجدُ منهمْ ليناً ودلالاً لا يعطونَه لبناتِهم، ربَّما بسببِ طبيعةِ مظهري الرقيقِ الجميلِ؟

علَّقتْ "عبيرُ" :

- إذا كنتِ بهذا الجمالِ الآنَ فكيفَ كنتِ في الصغرِ؟!

ابتسمتْ" حياةُ " وأكملتْ :

- تميزْتُ – كذلك - في المدرسةِ وسطَ زميلاتي واستحوذتُ على اهتمامِ ودلالِ معلماتي رغمَ أني لمْ أكُنْ الأذْكى أوِ الأنبهَ.

أعتقدُ بعدَ مرورِ السنينَ وانقضاءِ كلِّ هذا العمُر أنَّني أستطيعُ أنْ أجذمَ أنَّ هذا هوَ ما شكَّل شخصيتي، وجعلني على ما كنتُ عليهِ وما ترتَّبَ على ذلكَ من أيامِ حياتي.

تعودتُّ أن أكونَ الأَوْلى بالاهتمامِ، مميَّزةً في حركاتي وملابسي، أرفضُ أن أرتديَ أيَّ زِيٍّ يُشبهُ زيَّ زميلةٍ أو قريبةٍ، حتى يونيفورم المدرسةِ.

أُخبرُ أمي أن تنثرَ عليهِ وروداً من التطريزِ، فالأهمُّ أن أتميزَ به عن ملابسِ زميلاتي .. أيٌّ من ملابسي عندمَا اختَارُها من المحلاتِ أو من مجلاتِ الأزياء كانَ لا بُدَّ أن تُجْرَى عليه تعديلاتٌ حتى يستحيلَ أن يُشارَ إلى ثوبي أنه يشبهُ أيَّ ثوبٍ آخرَ في كلِّ البلدِ.

أغدقَ عليَّ أهلي بالدلالِ الزائدِ، خاصةً إخوتي الذكورُ.

كم كنتُ جميلةً رقيقةً وفاتنةً في هذهِ الحياةِ .

(٥٦)

أتى لي نصيبي في الزواجِ بخلافِ كلِّ طموحاتي، وخرجتُ من القاهرة بحياتِها النابضةِ لبيتِ زوجي في مدينةٍ يغلبُ عليها الطَّابعُ الريفي.

زوجي المهندسُ الزراعيُّ صاحبُ الأملاكِ، أين هو من فوارسِ أحلامي؟ كأن يكون ممثلاً تلتفُّ القلوبُ حولَه، أو طبيبٌ مشهورٌ يجوبُ العالَمُ في المؤتمراتِ، وتظهرُ صُورهُ في كلِّ وسائلِ الإعلام، سياسيٌّ محنَّكٌ مشهورٌ لهُ سطوةٌ و قوةٌ، ماليٌّ كبيرٌ يوفِّرُ لي كلَّ شيءٍ، وتكون حياتي رحلاتٌ حولَ العالَمِ أتجوَّلُ في كلِّ بيوتِ الأزياءِ.

أين هذا من أحلامي؟

للحَقِّ لقدْ كان زوجي وسيماً، ثرياً، و لكنَّه متعلقٌ بمهنتِهِ وأرضِه ومدينتِه التي -على الرغمِ من تمدُّنها -لا تشبهُ القاهرةَ ولا عواصمِ أوروبَّا التي طالما حلُمتُ بالإقامةِ فيها.

أينَ بيتُه الواسعُ الكبيرُ هذا من تلكَ العمارات الفاخرةِ أو منَ الفيلل والقصورِ التي كانَ هدفُ حياتي أن أسكنَها وأقيمُ بها حفلاتٍ.

صدمتني الحياةُ في هذا البيتِ الكبيرِ.

زوجي كان الولدُ الوحيدُ الذي ظلَّ لأمِّه من ستةِ ذكورٍ؛ فما أن يبلُغَ أحدُهم العشرينَ من عمرهِ حتى يموتَ بعد مرضٍ سريعٍ غامضٍ، وتعدَّى

زوجي الخامسةَ والعشرينَ من عمرهِ الذي أفسدتْهُ أمُّه بدلالِها وخوفِها أن تفقدَه كحالِ إخوته فأصبحَ عصبياًّ نزِقاً، وإن كانَ ذلكَ- كما أُقرُّ في أيامي الأخيرةِ- غلافاً لقلبِ صبيٍّ طيّبٍ، ولكنَّه كثيرُ العصبيةِ.

بعدمَا كنتُ المدللةَ في بيتِنا، وكنتُ فتاةً وسطَ الذكورِ، وجدتُّ نفسي وسطَ أسرتِه، أمِّه وأربعةِ أخواتٍ بناتٍ وابنةِ أختِه التي توفتْ من ستِّ سنواتٍ.

ملأتني الغيرةُ من اهتمامِ زوجي بأمِّه وأخوَتِه، وخاصةً " نانا " الصُّغرى.

طفلةٌ في السادسةِ من عمرِها، أي: أقلُّ قليلاً من نصفِ عمري.

هذه الطفلةُ كان خالُها ملاذَها رغمَ قسوتِه وعصبيتِه التي تُصَبُّ على الجميعِ حتى هي متى ما غضِبَ وثارَ، ولكنَّها أخذتْ مكاني في الدلالِ ؛فهيَ اليتيمةُ الصغيرةُ التي يحاولُ كلٌّ منهم أن يعوضَها فقدَ الأمِ وابتعادَ الأبِ عنها في حياتِهِ الجديدةِ.، ولكنِّي عزمتُ ودعوتُ أن ألِدَ ابنةً لأخطفَ لها هذا الدلالَ والاهتمامَ ما دمتُ لم أحظَ به.

عزمتُ أن تَلزمَ كلُّ واحدةٍ منهنَّ حدَّها، وأن أعتليَ المكانةَ العاليةَ في البيتِ كما تعودتُّ، وهكذا تحوَّلَ البيتُ لمكائدَ بيننا، وكنَّ يقابلنَ تصرفاتي بالضحكِ والمزاحِ، ولكنِّي كنتُ على يقينٍ أني سأنتصرُ، وهذا البيتُ سيكونُ لي رغمَ أنهُ لا يليقُ، ولكنَّه المتاحُ، وهكذا فكرتُ.

عِشتُ في غيرةٍ مستمرةٍ، وأعرفُ ذلكَ ولا أنكرُهُ، ولم أستطعْ، أو لمْ أردْ -بالأحرى- أن أُغيِّرَ هذا.

قاطعتُها:

- ألمْ يكنْ هناكَ حبٌّ أو دلالٌ في بيتِ زوجِكِ؟

(٥٧)

فردتُّ :

- أينَ هذا من الدلالِ في بيتِ أهلي؟ أنا في البيتِ واحدةٌ من مجموعةِ إناثٍ.
زوجي ليس لي خالصاً، لهُ أمٌّ وأخواتٌ وعملٌ وهواياتٌ وأصحابٌ يسهرونَ معهُ في ملحقٍ خاصٍ بالبيتِ يتسامرُون، ويستمعونَ للأغاني والألحانِ وقراءةِ الكتبِ ومناقشتِها.
كم أتى له من شعراءٍ وملحنينَ وكُتَّابِ أصدقائِه، وكنَّا أولَ من يسمعُ القصائدَ والألحانَ والأغاني الجديدةَ قبلَ أيِّ أحدٍ.

حياةٌ كلُّها مللٌ، وفي ذهابي للسينما وحفلاتِ النادي وتجمُّعِ السيدات كذلكَ عندَ أمِّه في سهرةٍ حافلةٍ - كما يصفونها - أسبوعياًّ، وذهابي لبيتِ أهلي أربعَ مراتٍ في العامِ لِمُدةِ شهرٍ، وقضاءُ شهورٍ بالمصيفِ، بيْد أني ما هكَذا تخيلتُ وحلُمتُ بحياتي.

أعترفُ أن زوجي كان سخياًّ؛ فلقدْ أعطاني حريةَ الحركةِ والتصرفِ في كلِّ شيءٍ إلا في أمورِ البيتِ؛ فهي في يدِ أمِّه؛ لأنَّها - كما حاولَ إقناعي- أكبرُ وأكثرُ خبرةً ودرايةً.

رُزقتُ "بهدى"، وفرحتُ ؛لأنها ستخْطفُ قلبَ زوجي منْ "نانا "، ولكنَّه قد خابَ ظني، فتلكَ اليتيمةُ تفوزُ بحبِّ زوجي وعطفِه، فهو ملاذُها رغمَ عصبيتِه.

أحبَّ "هدى " وكنتُ أراه كطفلٍ يلعبُ معَها ويأتيها بكلِّ ما ترغبُ فيهِ، ولكنَّهُ لم يُقلِّلْ اهتمامَه ورعايتَه لنانا أبداً.

لا بُد أن تكونَ ابنتي مميزةً.

هي ابنتي، وأينَ منها ابنةُ الفلاحينَ هذهِ؟ مهما تعلمتْ وامتلكتْ من مالٍ وأراضٍ؟؟

عملتُ كلَّ جهدي حتى أُزيحَ أخواتِه عن حياتي بزواجِهِنَّ، وكان هذا سهلاً؛ فهُنَّ جميلاتُ – و إنْ لم يكنْ مثلي - وذواتُ نسبٍ وثروةٍ، ولكنَّهُ قدْ خابَ أملي عندمَا وجدتُّ زوجي يهتمُّ بهنَّ أيضاً بعدَ زواجهِنَّ، وأصبحَ لهُنَّ أوقاتاً معينةً في العامِ يذهبُ لزيارتهِنَّ محمَّلاً بكلِّ الخيرِ والترفِ، وأيامٌ طويلةٌ لهُنَّ هُنا في بيتي كراحةٍ لهُنَّ واستجمامٍ بعيداً عن مسؤولياتِ بُيُوتِ أزواجهنَّ.

وما فتِأتْ أمُّه على كتفِه، وتقبِّلُ غُرَّتهِ قائلةً. "اللهُ يحميك يا ابني، أنت رجلُ أخواتِك وسندُهنَّ ".

وهذهِ الصغيرةُ نانا حبيبةُ جدتِها وخالِها وخالاتِها، لمْ أستطعْ -على كثرةِ ما أنجبتُ من أولادٍ- أن أُزيحَها ؛ فهي صغيرةٌ وكانتْ تحبُّ أولادي حبَّ

المحرومِ من الإخوةِ والصحبة، وكلما حاولتُ أن أُبعدَها زادتْ التصاقاً بهم وتعلقاً وعطفاً عليهم.

أما أمُّه التي امتدَّ عمرُها أكثرَ من توقعاتي - رغمَ أمراضِها - فلقدْ أقعدَها المرضُ في البيتِ بعد أن كنتُ أرتاحُ منها العديدَ من الأمسياتِ في زياراتٍ لصُويْحباتِها مصطحبةً معها " نانا " في زياراتٍ ممتعةٍ على ما يبدو؛ إذْ كانتْ تعودُ مشرقةَ الوجهِ متجددةَ الدماءِ، تحكي عن السهرةِ والطعامِ والأغاني والضحكاتِ والحكاياتِ التِي

(٥٨)

مللتُ من سماعها، و زادَ همّي بخدمتها أو – بالأحرى- بالإشرافِ على عنايةِ الخدمِ بها.

كانتْ ككابوسٍ يجثِمُ على صدري حتى أتى أمرُ اللهِ ونازعتْ سكراتِ الموتِ يومينِ. لم تتوقَّفْ نانا عن البكاءِ فيهما، ولم يتوقَّفْ زوجي عن الدخولِ والخروجِ عليْها كالمجنونِ لا يعرفُ ماذا يفعلُ، ويتصلُ كلَّ فترةٍ بالطبيبِ الذي لا يكادُ يخبرُه :أنها ساعاتٌ معدوداتٌ ما تتبقى لها من الحياةِ، وما أن يخرجَ حتى يستدعيَ غيرَه، وماتتْ أمُّه، وزادَ هذا من عصبيتِه ونكدِه، بلْ إن حدبه علي" نانا " تضاعفُ ليعوضَها الفقدَ الذي أعادَ جرحَ يُتمِها لذهنِه .

بلغت الخامسةَ عشرَ من عمرِها وتسرَّبَ حبُّها في قلبِ أخِي الضابطِ، وإن لمْ تُدركْ هذا، ونجحتُ بالحيلةِ أن أصرفَه عن خِطبتِها بأنَّ والدَها وأهلَها لن يُوافقوا ؛ حيثُ-بالتأكيد -هناكَ ابنُ عمٍّ في انتظارِها كعادةِ عائلاتِ الريفِ، وصدَّقَ كذبتِي، وكم تألمَ فسارعتُ وأمي لنخطبَ له ابنةَ الجيرانِ حتى تُشغِلَهُ عن هذا الحبِّ، ورغمَ عدمِ إدراكِ "نانا" لحبِّ أخي، ولكنِّي شاهدتُّ نظراتٍ دهشةٍ في عينيْها وحسرةٍ واضحةٍ، وهي تقارنُ بينَ جمالِها ورشاقتِها بعروسِ أخي القصيرةِ الممتلئةِ العاديةِ الجمالِ، فلقدْ كانَ أخي في عُرسِه بزيّهِ الرسميِّ حُلمَ كلَّ فتاةٍ، ناهيكَ عن أخلاقِه وأدبِه.

حتى أخي أحسستُ بحسرتِه وعينيْه تنتقلُ مقارِنةً بينَ "نانا " الفائقةِ الجمالِ -رغمَ تجرُّدِها من الزينةِ- وعروسِه، ولكنِّي أعلمتُ زوجتَه ما يحبُّه أخي وعرَّفتُها كيف تتدلَّلُ و تسلُبُ منهُ عقلَه، واستطاعتْ- فعلاً- أن تصرفَه عنها، وانتصرتُ أنا .في هذه المعركة الصغيرة.

رغم ذكائي وفطنتي، لم أستطع أن أُغيِّرَ عاداتِ زوجي، وأقطعُ ما بينَه وبينَ أصحابِه، كان يهربُ لهم وأسمعُ أصواتَ ضحكاتِه تأتي من بعيدٍ. بعدمَا أعيتني الحيلُ في "نانا " اصطنعتُ صداقتي لها؛ لتبوحَ لي بكلِّ ما يجولُ بخاطرِها وقلبِها عليِّ حتى أجدَ منفذاً للتخلصِ منها، كانتْ تثقُ بي وتخبرُني بكلِّ تفاصيلِ يومِها من أوَّلِ خروجِها للمدرسةِ وحتى عودتِها للبيتِ.

وكنتُ أبذُلُ لها النصيحةَ، حتى أتتْ في يومٍ مبهورةَ الأنفاسِ مضطربةً، ودخلتْ غُرفتي وأغلقتْ البابَ ثم َقالتْ:

-" الحقينى يا أبلة، إن " محمود" ابن طنط " عفاف " دسَّ ورقةً في يدي وأنا في الشارعِ .

وأعطتني الورقةَ وهي ترتجِفُ بدونِ حتى أن تفتحَها، كان ابنُ جيرانِنا خريجَ كليةِ الهندسةِ يخبرُها فيها بحبِّه، وأنه لو وقفتْ في الشُّباكِ، ورمتْ له المنديلَ سيعرفُ بأنها موافقةٌ، ويرسلُ أمَّه وأخواتِه لخِطبتِها .

أخبرْتُها أن ما بالورقةِ كلامٌ لا يليقُ - صدقتني البلهاء وكم اغتظْتُ من براءتِها هذه، وفرحتُ لأني سأنتصرُ- وأعلمتها أني سأخبرُ خالَها وهو يتصرفُ، وأن تنسَ هذا الأمرَ تماماً وإلا سيكونُ عقابُ خالِها شديداً .

اتخذتُ من هذا الخطابِ حُجَّةً لإبعادِها عنِ البيتِ.

البنتُ كبُرتْ يا " أنورُ!" - هكذا فاتحت زوجي-

(٥٩)

والشبابُ سيفتحون عينيْها، وسيأتي لها الخُطَّابُ، وهذا لن يُعجِبَ أباها وأعمامَها.

أنت وحيدٌ، وأولادُك صغارٌ وأبوها وأعمامُها كثْرٌ، ولهم نفوذٌ، وهي كانتْ معنا من أجلِ أمِّكَ -رحمَها اللهُ -التي تعلقتْ بها وليدةً تعويضاً عن فقدِ أختِكَ الشابَّةِ، وأنَّها كانتْ من رائحةِ ابنتِها، لدرجةِ أن أباها تركها عندما وجد تعلُّقَ أمِّك بها.

ولكن في النهايةِ مصيرُها لأبوها.

وكررتُ أشباهَ هذا الكلامِ، حتى نجحتُ في أن يتفقَ مع والدِها أن يأخذَها بعدمَا تلتحقُ بالجامعةِ.

وخرَّبتُ عليْها هذه الزيجةِ أيضاً، أتتزوجُ "مهندَ " المعيدَ بكليةِ الهندسةِ وتعيشُ معهُ في الإسكندرية وأنا مدفونةٌ هُنا؟ وتمَّ لي ما أردتُّ فبدأَ "أنورُ" برفضِ أيِّ خطيبٍ يأتي إليها وخبأْنا هذا عنْها.

حتى يسلِّمَها والدُها ميراثَها أيْضاً .

ألجمتْ كلماتُ "حياة " ألسنتَنا : ما هذهِ القسوةُ وبرودةِ المشاعرِ؟.

حياةُ غلافٍ جميلٍ من الخارجِ ولكنَّ كلَّ القبحِ كانَ من الداخلِ.

غيرُ عابئةٍ بتعْبيراتِ وجوهِنا التي ظهرتْ رغماً عنَّا .

أكملتْ " حياةُ " حكايتِها.

- لم أحكِ لكمْ عن أولادي، فلديَّ بنتٌ و وخمسةُ أولادٍ .

البنتُ - للأسف- لم ترثْ منّي الجمالَ، ودلَّلتُها لأقْصى مَدى، وقد حرصْتُ على أن تُتمَّ تعليمَها، وأن لا تتزوجَ إلا بعدَ حصولِها على عملٍ واستقرارِها به، ولكنّها اختلفتْ معي ونعتتني بالقاسيةِ عديمةِ الرحمةِ؛ لأني ضيَّعتُ عليها حب عمرها - على حدِّ قولِها - وخاطِباً كنجومِ السينما، وماذا ستفعلُ بفقرِهِ وهو ما زالَ يشقُّ طريقَه؟ حتى اضطرتْ من جرحِ قلبِها - كما تقولُ -أن تقبلَ شخصاً عكسَ كلِّ أحلامِها، وإن كنتُ أنا أرى أن زوجَها مناسب كصاحبُ ثروةٍ ونسبٍ.

ولدي الأولُ كان عليلاً يخرجُ من مرضٍ إلى مرضٍ، ضعيفَ الصحةِ دائماً، ولكنّي كنتُ أرغبُ في أن يجتهدَ، ويحصلَ على أعلى الفرصِ التعليميةِ، وأفرضَ عليهِ أن يُغالِبَ مرضَه وضعفَه بالمذاكرةِ والاجتهاد.

وأمَّا الثاني: كانتْ به - ما اعتبرتهُ - قلةُ عقلٍ أو لوثةٌ مصحوبةٌ بدلالٍ شديدٍ وعصبيةٍ غيرِ معقولةٍ، وكان مصدرَ سخريتي بتناقضاتِه.

حرقَ قلبي وهو في أُولى سنواتِهِ الجامعيَّةِ، وهرِبَ من البيتِ، وظلَّ عاماً كاملاً غائباً، ولا أعرفُ أينَ هو، وأصابتني أولُ جلطةٍ، وعلمتُ بعدَ سنتينِ أنهُ تزوجَ وأنجبَ ابنةً، وتركَ البلادَ، وهجرَ زوجتَه حاملاً في الابنةِ الثانيةِ، وتولى زوجي رعايةَ زوجةِ ابني والبنتيْنِ إحساساً منهُ أنَّ قسوتَه وعصبيتَه هي سببُ هروبِ الابنِ .

أمَّا الولدُ الثالثُ: فكانَ عصبياً، نزِقاً كوالدِه.

لقدْ دلَّلتُهُ كثيراً؛ لأنهَ كان يُشبهُني في الشكلِ كثيراً، وكانَ الأقربَ لقلبي، و تركْتُه يفعلُ ما يشاءُ، لدرجةِ أني قد تغاضيتُ عن علاقتِه بجارتِنا المتزوجةِ، وتكتَّمتُ عليها، وتصرفتُ عندما علِمتُ أنها حُبلى من ابني وساعدتُّها حتى تتخلصَ من هذا الحملِ. وبحثتُ له عن زوجةٍ ينشغلُ بها عن طريقِ المشاكلِ .

(٦٠)

كنتُ أحكي لمنْ أعرفُهُ عن مغامراتِه، وأشكو، ولكنَّهُ كانَ حبيبي، وكنتُ أغفرُ لهُ كلَّ أخطائِه، خاصةً وأنَّه كانَ على خلافٍ دائمٍ مع والدِه لتشابُهِهمْ في العصبيةِ والتوترِ وكثيرٍ من الصفاتِ.

نعم. قد شابهَ أباهُ حتَّى في مغامراتِه، وبقدرِ ما كانَ قلبي يحترقُ مما كانَ يفعلُه زوجي كنتُ فرِحةً بما يفعلُه ابني .

وأصغرُ أبنائي كانَ مدلَّلاً منِّي، ومنْ أبيهِ الذي هدأَ بعضَ الشيءِ بعدمَا تقاعدَ وشاهدَ نموَّ ابنهِ أمامَ عينيْه، فلقدْ كانَ مشغولاً طوالَ عمرهِ بعملِه وأرضِه ووظيفتِه.

كان الولدُ غضوباً، وطلباتُه مجابةً، يرسبُ في مدرستِهِ، فأراضِيهِ، ويخرجُ منَ البيتِ ويتأخَّرُ فأداري عليهِ.

ضاعتْ من حياتهِ سنواتٌ وسطَ الرسوبِ الدراسي والفشلِ حتى استطاعَ أن يُنهيَ تعليمَه الجامعيَّ .

وتزوَّجَ وكانتْ زوجتُه سبباً في صلاحِ حالِهِ والتزامِه بعملٍ وحياةٍ هادئةٍ.

بزواجِ الأولادِ عِشتُ مع زوجي في بيتِنا، وأخيراً أصبحَ لي وحدِي، وإنْ كنتُ زاهدةً كارِهةً لحياتي مع زوجي .

وكانَ ينغِّصُ عليَّ كثرةُ اهتمامِه بكتبِه وحديقتهِ التي يزرعُها ويشرِفُ عليْها، ويأتي إليْنا الأولادُ في المناسباتِ، و أصابني الشللُ بعد موتِ أحبِّ إخوتي لي.

عِشْنا وحدَنا إلا من حارسٍ، تشرفُ زوجتُه وبناتُه على الطهيِ والتنظيفِ. أحسستُ أن كلَّ جهودي تصيرُ هباءً، وأصبحتُ وحيدةً، كما ذهبتْ أخواتُ زوجي وأمِّه وابنةِ أختِه .

ذهبَ – أيضاً - أولادي كلُّهم لحياتِه، ونسوْني إلا من أطباقِ طعامٍ تُرسَلُ لي مع السائقِ أوْ مكالماتٍ متعجلةٍ، وبضعِ ساعاتٍ في مناسباتٍ بعيدةٍ متناثرةٍ .

وماتَ زوجي ونحن بمُفردِنا، ولم أستطعْ - وأنا عجوزٌ- أن أفعلَ شيئاً أسعفُه به، وعشتُ ساعاتِ الليلِ في رعبٍ خائفةً تسيلُ دُموعي وأيامُ حياتي السابقةُ، وأدركتُ كمْ أحببتُهُ رغمَ نفوري منهُ، وكمْ أحبَّني، ولكنِّي لم أفهمْ هذا إلا بعدَ موتِه.

خيالائي ودلالي نغَّصُوا عليَّ حياتِي التي كانتْ أفضلَ ما يناسبُني كما اختارها لي أبى وأخواتي، ولم أفهمْ أن حبَّهُ لي لا يُنقِصُ من حبِّهِ لأمِّه وأخواتِه وهواياتِه.

كنتُ أظنُّ أنني وحيدةٌ وحولي زوجي وأهلُه وأولادي ؛ لأنِّي لم أكُنْ الأوْلى والمميزةَ، والآنَ أدركْتُ حقاً ما هيَ الوحدةُ.

قضيْتُ أسودَ ساعاتي كأنَّها دهرٌ في انتظارِ الصباحِ؛ ليأتيَ أحدٌ ويعرفَ أن زوجي قد ماتَ.

في هذهِ الساعاتِ وبعدمَا مرَّ بي، قررتُ أني لن أموتَ وحيدةً، لا بُدَّ أنَ أعيشَ وسطَ الناسِ، وها أنا هُنا وإنْ كانتِ الحياةُ مملةً، ولكنَّها كانتْ أفضلَ من الوحدةِ.

اندهشتُ من قولِها بعدَ كلِّ هذَا، وسألتُها:

(٦١)

- الحياةُ هُنا مملَّةٌ؟
- نعم. مملةٌ.
تدخلتْ "بطة " في الحديثِ :
- واللهِ إنكِ جبارةٌ يا " حياة! "أَلَا تعجبُك الحياةُ هُنا؟!
إنكِ ترفضينَ أن تشاركينَا في الحياةِ هُنا، وترفضينَ أن تعملي؛ لأنَّكِ تعتبرينَ العملَ إهانةً، وتُرددينَ: ولِمَ العملُ؟ أنا أعيشُ هُنا بنقودي.
فتردُّ "حياة"عليها:
- هذهِ ليستْ بحياةٍ.أنتِ لا تعرفينَ كيفَ تعيشُ زوجةُ أخي مثلا..
- احكي لنا .
- ملكتْ قلبَ زوجِها وعقلَه، وأصبحَ -كما يقُولون- كالخاتمِ في إصبعِها، وأقنعتْهُ -رغمَ يسارِه- أن يسافرَ ليزدادَ رِزقُه، وربتْ أولادَها على طاعتِها العمياءِ، وأنمتْ حبَّها في قلبِهم، ومَلكتْهم .
لِمَ لا؟ فهي الأمُّ المضحيةُ التي تُربِّي ثلاثةً وحدَها بدونِ زوجٍ، وتتحملُ المسؤوليةَ وتُحرَم منْ أمانِ وجودِ زوجِها معها .
هذا الزوجُ الذي اشتهى المالَ عن قربِها، وكانتْ في كلِّ يومٍ تذكرُ لهم شقاءَها، وكمْ تحملتْ، وتتحملُ من أجلِ تربيتِهم، وهي ترجُو أن يتحملُوها عندمَا تكْبُر، ويعوِّضُوهَا الحرمانَ الذي عاشتْه.

وكبُرَ الأبنـاءُ، وحثَّتْهمْ جميعـاً على السـفرِ، رُغـمَ أن زوجَهـا عـادَ ولـديْهم الكثيرُ منَ المالِ والعقارِ.
وها هيَ تسافرُ عندَ كلِّ ولدٍ من أبنائِها لشهريْن في العامِ، و تنهلُ من حبِّهم، وخيرِ رزقِهـم، وتعـودُ محملـةً بالهـدايا، وكـذلِكَ في إقامتِهـا في بيْتِهـا تصلُهـا الهـدايا، وألـذُّ مـا تشـتهيهِ نفسُـها من الحلـوى يرْسِلُها لهـا أبناؤُهـا كلَّ فترةٍ، ناهيكَ عن مكالماتِها بالساعاتِ هاتفياً ذاكرينَ لها أدقَّ تفاصيلِ حياتِهم معَ أبنائِهم وزوجاتِهم، ولهـا سـياحةُ شـهرينِ على نفقـةِ زوجِهـا و الأولادِ في أيِّ بلد تشيرُ عليهِ .
إن رأيتَهـا تظنـينَ أنَّهـا في نصـفِ عمرِهـا، متمتعـةً بكلِّ لحظـةٍ في حياتِهـا.
وليسـتْ مثلي، فقـدتْ كـلَّ شـيءٍ، وهـا أنـا هنـا ملقـاةٌ في دارِ مسـنينَ.
أخبرتُها ما يجولُ بخاطري :
- واللهِ يـا حيـاةُ! يحتـارُ الإنسـانُ عنـدما يـرَى النهايـاتِ، هـلِ البـداياتُ والأسـبابُ صـحيحةٌ أم خاطئــةٌ، ومــن منَّــا ســعيدٌ ومــنِ التعــيسُ.
فلقدْ ربيْتُ أولادي تقريباً وحدي، وكنتُ أجاهدُ حتى أصلحَ ما يخرِّبُهُ زوجي في دقائقَ من نفوسِ أولادي.
حتى أن ابني كان يثـورُ عليَّ لـو أسـاءَ لـه والـدُه، كأنـه يعـاقبُني أنـا بـدلاً مـن أبيـهِ، وعنـدمَا عاتبْتُـه مرةً؛ لأني قـدْ تحملـتُ هـذهِ الحيـاةَ لأجلـهِ وأخواتِـه، وحتى لا أفقدَهم قالَ لي :
- وأيُّنا قد طلبَ منكِ أن تتحمَّلي .

(٦٢)

أحسستُ أن تحمُّلي لا يساوي شيئا، وأنه كانَ لا بُدَّ أن أُغيرَ هذهِ الحياةَ بدونِ أيِّ اعتبارِ شيءٍ سِوى نفسِي، ولكنِّي ما هكذا جُبِلتُ ولا هذا طبعي.

وكنتُ أعجبُ كلَّما حنوْتُ على ولدي وهو كبيرٌ، ولا أجدُ لديْه سوى غباوةِ القلبِ وقسوتِه تماماً بعكسِ ما كانَ عليهِ وهو صغيرٌ.

مهما اختلفتْ اختياراتُ كلِّ واحدةٍ منَّا، أجد أن الندمَ يلاحقَها.

حانَ وقتُ النومِ.. فلتذهبْ كلٌّ منا لتطويَ أحلامَها وآلامَها، لعلَّهُ يشرِقُ يومٌ جديدٌ.

(٦٣)
مِرْآةٌ ثامنةٌ

ها هوَ صباحٌ جديدٌ يشبهُ سابقيهِ، وإن كنتُ أعملُ جاهدةً ليكونَ به ما يميزُه.

خرجتُ من غرفتِي متوجهةً للحديقةِ؛ فيومُ الجمعةِ في مواعيدي ونظامي مختلفٌ عن باقي الأيامِ.

وجدتُّ (أمينة) تنتظرُ السيارةَ لتنقلَها في مشوارِ يومِ الجمعةِ المعتادِ لها منذُ أن قدمتْ إلينا.

- تعيشين وتتذكرين يا أمينةُ! .

هكذا بادرتُها وهي متشحةٌ بالسوادِ، وبجوارِها سلةٌ كبيرةٌ ممتلئةٌ بالأطعمةِ ومغطاةٌ.

تخرجُ أمينةُ كلَّ يومِ جمعةٍ مع أولِ أضواءِ شمسِ الصباحِ صيفاً أو شتاءً.

تعجبتُ أولَّ مرةٍ من مشوارِها هذا، وسألتُها:

- أينَ تذهبينَ؟ ولماذا؟

قالتْ لي متعجلةً :

- الآن؟ الحكايةُ طويلةٌ، وعندمَا أعودُ سأحكِيها لكِ، لا أُريدُ أن أتأخرَ.

وحكتْ لي بعدَ عودتِها وجلوسِها المعتادِ من بعدِ صلاةِ المغربِ في مسجدِ الدارِ إلى صلاةِ العشاءِ، حيثُ اعتادتْ أن تلجأَ، تتلقَّى دُروساً وتتناقشُ مع منْ تَحضرُ للمسجدِ في شؤونِ الدينِ.

حكتْ لي: عشتُ في بيئةٍ شعبيةٍ أليفةٍ، والبيوتُ فيها متلاصقةٌ وكلٌّ منَّا يعرفُ الآخرَ وأحوالَه.

تربيتُ وسطَ أمي وأبي وأربعةِ إخوةٍ :ثلاثةِ أولادٍ وبنتٍ واحدةٍ أدركتُ من صغري أني مختلفةٌ، فأنا في عرفِ الجميعِ قبيحةٌ، ولمْ أسمعْها مباشرةً ولكنّي كنتُ أسمعُ الهمساتِ،: سبحان الله! مِن أين أتت بهذه الخلقة في حينِ أن إخوتَها الأولادَ ملامحُهم ألطفَ.

ألَا تُحِسُّ بقبحِها، كانَ اللهُ في عونِ أمِّها وأبيها .من سيتقدمُ لها؟. لها جسمٌ مثلُ عارضاتِ الأزياءِ، وهذَا الشَّعرُ الناعمُ الكثيفُ الأسودُ الطويلُ، سبحان الله!كيفَ تركَّبَ عليها هذا الوجهُ؟!.

أغمضتْ عينيْها تكتمُ انفعالاً داخلياًّ، ثم أكملتْ:

- تجاهلتُ كلَّ هذا وعشتُ كأيِّ فتاةٍ أتزينُ وأتدلَّلُ، وكمْ منْ مراتٍ صُدمتُ أثناءَ سيري في الشارعِ، وأسمعُ الثناءَ وعباراتِ الغزلِ ومجردِ أن أديرَ وجهي لأرى المتحدثَ أسمعُ: أستغفرُ اللهَ العظيمَ، لا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ، وتليها عباراتُ السخريةِ من قبح وجهي.

تزوَّج إخوتي وأختي الأصغرُ منّي، وبقيتُ في البيتِ مع أبى وأمي، وماتتْ أمي بعد سنواتٍ.

(٦٤)

يئس الجميعُ من زواجِي إلا أنا؛ فالجميلاتُ أيضا يتأخرنَ في الزواجِ، إنه النصيبُ .

كنتُ لا أرى في وجهي أيَّ عيبٍ، أنا لا أُحسُّ بالقبحِ الذي يتهامسون بهِ، فعيناي صغيرةٌ، و لكنَّ لونَهَا الأسودَ رائقٌ برموشٍ كثيفةٍ، وأنفٌ كبيرٌ، ولكنَّه عاديٌّ، وفمٌ ممتلئٌ ومغرٍ، فكلُّ شيءٍ طبيعيٌّ، ولكنَّها ملامحٌ قد تركبَّت بشكلٍ جعلها غيرَ متناسقةٍ . هل تلغي ملامحُ الوجهِ فقط جمالَ بقيةِ جسدي؟ و لم أهتم كعادتي، كنتُ أتجاهلُ النظراتِ المستنكرَةَ.والهمسات القاتلة:

- كيفَ لهذه القبيحةِ أن تسيرَ، وتتبخترَ هكذا؟ ألا تنظرُ في المرآة!

اجتماعيةٌ أنا بطبيعتي، ومختلطةٌ بكلِّ جيراني ؛فأنَا قد ترعْرعتُ معهم منذُ الطفولةِ، وهكذا كانت بيوتُنا ومنطقتُنا كأنها بيتٌ واحدٌ كبيرٌ لا تُغلقُ أبوابُه إلا عندَ النومِ، وكلٌّ منا يعلمُ حالَ جارِه وأخبارِه، حتى وفدتْ علينا أسرةٌ قدِ اشترتْ بيتاً في حيِّنا، إنها أسرةٌ كبيرةٌ قد تكوَّنتْ من أبٍ وأمٍّ والكثيرِ منَ الأولادِ والبناتِ، صغارِ السنِّ وشباب، وتعرفتُ كالعادةِ علي الأمِّ والبناتِ، ولفتَ انتباهي الأبُ، شيخٌ كبيرٌ ذو مهابةٍ، ولهُ شموخٌ وعظمةٌ لا تَخْفى علي أحدٍ، وصامتٌ دائمًا، ولهُ طقوسٌ يوميةٌ في الدخولِ والخروجِ، ولا يحيدُ عنها. كان مزارعاً ومالكاً لحديقةِ فواكهٍ، ولكنَّ كثرة

الأولادِ، والكرمَ الزائدَ واستغلال القريب والبعيد له قد أدى لبيعهِ أرضَ الحديقةِ شيئاً فشيئاً، وآخرُ ما تبقَّى لهُ اشترى بهِ هذا البيت، ويعتمدُ في معيشتِهِ على معاشٍ متواضعٍ يكادُ يكفيهم، بالإضافةِ لإيجارِ شقتينِ في هذا البيتِ الذي اشتراه، هكذا قد عرفْنا الحكايةَ من زوجتهِ.

لكنّي كنتُ أترَقَّبُ دخولَه وخروجَه، وأنا أتعجبُ من صمتِه وعدمِ مشاركتِه لرجالِ المنطقةِ أيّ حديثٍ سوى التحيةِ المعتادةِ فقطْ، لقدْ تعجبتُ لحالِ هذا الرجلِ، كُسِرَ ويحاولُ بصمتهِ أن يُخفيَ هذا الكسرَ.

تعوَّدَ على الغنى والثروةً والإشرافِ على أراضيه، وعندما فُقِدتْ منهُ لم يُرِدْ أن تَضيعَ مهابتُه وشموخُه وراءَ تلكَ الثروةِ الضائعةِ .

أحسَّتْ زوجتُه بملاحقةِ عيْنيَّ له في الذهابِ والإيابِ، واستشعرتْ منّي بخطرٍ كاذبٍ، وما كانَ منها إلا أن وضعتْ ابنَها الشابَّ "إبراهيمَ" أمامَ عينيَّ؛ ليحدثَني، ويقتحم عليَّ إطلالَتي من شُباكِ البيتِ، أو يوقفَني في الطريقِ ليسألَ عن أيِّ شيءٍ ويمتدُّ الحديثُ، ولقدْ كانَ حلوَ الحديثِ، وسيمَ الملامحِ، واندهشتُ منْ إقبالِهِ عليَّ، ولم أُدركْ بالطبعِ ما قامتْ به أمُّه إلا بعدَها بكثيرٍ، وتسللتْ لقلبي أحاسيسٌ لم أشعُرْ بها من قبلُ، ووجدتُّ نفسي وأنا في الخامسةِ والأربعينَ أُحِبُّ، وأهوى وأشعرُ بما سمعتُه يترددُ كثيراً من كثيراتٍ حولي : أهذا هو الحبُّ؟ وكعادتي لم يكنْ في اهتمامي سوى هذهِ المشاعرِ المتصاعدةِ بداخلي، وانصرفتْ كلُّ أفكاري لهذا الشابِّ الذي يلفُّ عقلي بكلامِه، وتناسيتُ عمري، واختفى شبحُ

قبحي الـذي طالما لاحقني، وعشـتُ هـذا الإحسـاسَ وحلاوتَـه، وإن كنـتُ فُوجئتُ عندما سألني:

- متى آتي مع أبي وأعمامي لخِطبَتِك؟ لم أستوعبْ الموقِفَ، وكأنَّ عمري قــد كـانَ تحـتَ العشــرينَ، وجريْـتُ مــن أمامــهِ خجْلـى لا أعــرفُ.

(٦٥)

أأرقـصُ، وأطيرُ فرَحـاً بالشـارعِ، أم أتـوَارى في غرفتِي أنثرُ بها فرحَتي؟
أحسستُ بزهوٍّ وفرحةٍ وأحاسيسَ أُخرى مختلطةً لم أشعُرْ بها من قبلُ،
هذا الشابُّ الذي أصبحَ منذُ حلولِهم هنا قِبلةَ أنظارِ كلِّ البناتِ، ومُنتهى
أحلامِهنّ قد .تركَهُنَّ كلَّهنَّ، ويريدَني أنا؟؟ لم أَكنْ ساذجةً لهذهِ الدرجةِ
الغافلةِ، ولكنِّي قد أحببتُ الأمرَ، وتمنيتُه، وسُرْعان ما تمتِ الخِطبةُ.
واشترطتُّ أن نعيشَ مع أبي في بيتهِ ؛فليسَ لهُ غيري فإخوتي متزوجونَ في
مدنٍ بعيدةٍ، وكانَ هذا أمْراً مُرحَّباً بهِ من قبلِ (إبراهيمَ)؛ فليسَ لديْه
مسكنٌ أو إمكانياتٌ لذلكَ.
دلَّلني إخوتِي، وتكفَّلوا بجهازي وتجديدِ أثاثِ الشقةِ من أجلي وفرحاً بي.

لاقيتُ الأمَرَّينِ من ملاحظاتٍ حولَ الفارقِ الكبيرِ بينَ عمري وعمرِه، وأن
مثلَه تتمنَّاه أجملَ الجميلاتِ.
وكالعادةِ لم أُبالِ، وركزتْ في داخلي ومشاعرُ الأنسِ والفرحةِ التي تشِعُّ
منِّي، ولقدْ تزوجتُ وعِشتُ الحبَّ لأولِ مرةٍ في حياتي، وظهرَ طبعُ زوجِي
بعدَ شهورٍ معدودةٍ، وكمَا أدركتُ منَ البدايةِ ولم أكنْ غافلةً كما قلتُ،
لقد تزوَّجني من أجلِ شقةِ والدي، ومن أجلِ الأموالِ التي يرسلُها لي

إخـوتي كمـا قـد سـمعَ مـن الجيرانِ، ولكنّي قـدْ تحملـتُ حتى لا يظهـرَ هـذا أمامَ أحدٍ، وإنْ كنتُ أدركُ أنهُ لم يكنْ بالأمْرِ الذي يخفَى على أحدٍ.

واحترتُ أنا في فهمِ "أمينة" وأعربتُ لها عن ذلكِ بقولي :

- أرضـيتِ بـالزواجِ بـه وأنـتِ تعـرفينَ بطمعـهِ بمـا لـديكِ مـن مـالٍ وسكنٍ؟ لماذا؟ تنهدتْ وقالتْ:
- كفـاني مـا وجـدتُّ مـن حرمـانٍ وجفـافٍ في حيـاتي، كمـا أني كنـتُ أتمتَّعُ بدورِ الزوجةِ، أتدلَّلُ عليهِ.أنتظرُ عودتَه من عملهِ، تحضيرُ طعامِـهِ والاهتمـامِ بملابسِـهِ، التَّحـدثُ مـع الجـاراتِ عـنِ المشـاكلِ اليوميةِ، وماذا أفعلُ لهُ ومعهُ، إنها متعةٌ أحسستُها، وكمْ تمنيتُها وحلُمـتُ بهـا منـذُ زمـنٍ، ويكفـي أني أحببْتُـه، وأريـدُ أن أُحيـى هـذه الأحاسيسَ بكلِّ تركيزٍ، ولا أُشتِّتُ مشاعري بمسائلَ ماديةٍ تذهبُ و تأتي .

أريد أن أعبَّ من هذهِ الحياةِ الحلوةِ التي حُرمتُ منها طويلاً حتى ظننتُها لن تأتيَ أبداً.

ووالـدي الـذي يعيشُ معنـا في نفسِ الشـقةِ لـم يشـعرْ -كـذلكَ- بشيءٍ من طمعِ زوجي أو تغيُّرٍ في معاملتِهِ لي؛ فلقـدْ حـرِصَ " إبراهيمُ " على الظهـورِ أمامَـه بمظهـرِ المحبِّ الحنـونِ، وأخـذَ دورَ الابـنِ الصـالحِ لـهُ، ويسـاعدُ في إطعامِـهِ، ويحـرِصُ على مواعيـدِ أدويتِـهِ، ويأخـذُ بسـاعدِهِ للـذهابِ لصلاةِ

الجمعةِ، فلقدْ كانَ معاشُ والدي الكبيرُ - الذي كانَ يعطيه لي؛ لأنفقَهُ في البيتِ - خيرَ جاذبٍ له أن يكونَ ملاكاً تكاد أن تظهرَ له أَجنحةّ .

(٦٦)

يتمتَّعُ زوجي بجاذبيةِ المحتال لقدْ أدركتُ هذا وراقبتُه، وإن لم يَقِلْ أبداً حبي له وشغفِي به، يستطيعُ أن يأسرَ عقولَ وقلوبَ منْ أمامَه بظرفِه وتعاطفِه وكلامِه الجذَّاب .أحبَّه إخوتي وأولادُهم، وأغدقوا علينا الهدايا إكراماً لي، وفرحاً منهم بزواجِي الذي قنَطوا من حدوثِه، وإعجاباً بهذا الزوجِ الذي أصبحَ صديقاً لإخوتي وأختي وزوجِها، و أولادُ إخوتِي –كذلك - قدِ انجذبوا لحلوِ حديثِه وروحِهِ المرحةِ وشخصيتهِ الخدوم المهذب البارزةِ أمامهم، فكمْ رافقَهم وعطَّل عملَهُ حتى يُنهيَ لهم أوراقاً أو توسطَ لهم لخدمةٍ ما.

وحدي منْ رأيتُ الوجهَ الآخرَ، وردودَ أفعالهِ العنيفةِ غيرِ المتوقعةِ..

في يومٍ ما قد تأخرتُ لدقيقتينِ عن وضعِ باقي الطعامِ على المائدةِ حتى أُخرجِ الملابسَ منَ المِغسلةِ، وإذا به يقفزُ من الكرسيِّ، ويمرُّ بالصالةِ، ويكونُ خلفي في الحمامِ، وإذا به يمسِكُ رقبتي من الخلفِ، ويدسُّ وجهي في المِغسلَةِ، ويضغطُه وسطَ الماءِ والصابونِ حتى كدتُّ أن أختنقَ، وتركَني فجأةً وأنا لا أكادُ ألاحقُ أنفاسي من السعالِ والدُّوارِ، وجلسَ ليأكلَ، وطالَبَني بالإسراع في إحضار المزيدِ، وكأنَّ شيءٍ لم يحدثْ.

غلبتْني الدموعُ الحبيسةُ فتدفقتْ سخيةً وتلتْها تنهداتٌ عميقةٌ، وظلَّت تقاومُ وتحاولُ أن تُطلقَ لسانَها ؛ لتكملَ الحكايةَ قائلةً :

- كنتُ أُخفي ألمي من متابعتهِ لأيّ فتاةٍ أو سيدةٍ تمرُّ أمامَ عينيْه معدداً لي محاسنَهنَّ، ويتغزلُ بهنَّ أمامي قائلاً :

- انظري إلى الوجهِ، ما أجملَ تلكَ العيْنينِ، جمالٌ ربانيّ، وصبرتُ؛ فأنا أُحبُّ.

مرَّ عامٌ على زواجِنا، وبدأتْ تظهرُ أعراضُ الحملِ، فكمْ سمعتُها من الجيرانِ وزوجاتِ إخوتي وأختي، وأنكرتُ في نفسِي ذلكَ، أألدُ في هذا العمرِ؟حتى سقطَ هذا الحملُ، وأخبرنِي الطبيبُ: أني كنتُ في الشهرِ الثالثِ.

لقدْ شاعَ الأملُ في قلبِ زوجي بأن يكونَ له طفلٌ ؛فلقدْ كانَ من قبلُ يائساً من حملي؛ لمعرفتِه بحقيقةِ عمري، وأصبحَ يسألُ :

- ألَا يوجدُ جديدٌ؟؟

تكرَّر حملي ثلاثَ مراتٍ أخرى، وكل مرةٍ يسقطُ الجنينُ، وأخبرني الطبيبُ : لا فائدةَ، ولن يعيشَ الجنينُ أكثرَ من الثلاثةِ أشهرٍ، فلْتدَّخِرَ نفسُكِ هذه الآلامَ .

لقدْ تحطَّمتِ الآمالُ، ورضيتُ، ولكن "إبراهيمَ " لم يهدأْ ؛فلقدِ انتعشَ أمله أن يكونَ أباً وظلَّ يطلبُه منِّي كأني قادرةٌ على ذلكَ، وظهرتْ شراستُهُ بعدَ موتِ والدي الذي انقطعَ معاشُه بموتهِ، وأصبحَ " إبراهيمُ "مُطالَباً أن يُنفِقَ على البيتِ.

(٦٧)

حاولَ إخوتي أن يعوِّضوا هذا النقصَ، وعندما علِم رحَّبَ بذلك.؛ فإخوتي يَعْرِفـونَ بحبي لـه، ولـم يـروْا أيـاًّ مـن بشـاعةِ أخلاقـه وتصـرفاتِه معي.، وأصبحَ يجرحُني بكلامهِ عن الأطفالِ، ويداعبُ أيَّ طفلٍ يمرُّ أمامه بشكلٍ لافِتٍ للانتبـاه، ويفتـتُ كبـدي ويجعـلُ النـاسَ تتحسَّـرُ على هـذا الشـابِّ المحرومِ من الأولادِ؛ لأن زوجتَه عجوزٌ.

أتى إليَّ في يومٍ، وأخبرني بهدوءٍ :أنه قدْ تزوَّجَ، وأن زوجته تنتظر طفلاً، وعرَفتُ أن أصدقاءً له قد رشَّحوا له أُختَ صديقٍ أُخرى لم تتزوَّجْ، ولا تتمتَّعُ بقدرٍ من الجمالِ أوِ الرشاقةِ، ولكنَّها تمْتلِكُ أموالاً وميراثاً، وإخوتُها يجْأرونَ بالشكوى من تدخُّلِها في شؤونِ بيوتِهم وزوجاتِهم وتحويلِ حياتِهم لجحيمٍ، فكانَ حلُّ مشاكلِ هذيْن الصديقينِ تزويجَ "إبراهيمَ " بالفتاةِ؛ فيرتاحُ الجميعُ، وطمعَ في المالِ الذي ورثتْه وفى الولدِ كذلكَ، وتكفَّلَ أصدقاؤهُ بالأمورِ الماديةِ أيضاً في هذا الزواجِ، وبحلاوةِ حديثهِ وصفاتِ المحتال البارعِ بداخلهِ قد أَسرَ قلوبَهم فتعاطفوا معهُ.، وحملتْ زوجتُه سريعاً؛ فلقد كانتْ صغيرةَ العمرِ.

تحاملتُ على نفسي بعد ولادتِها - فلقد خشيتُ أن ينصرفَ عنِّي إبراهيمُ-، وزرتُها لتهنئتَها بالولادةِ، وكمْ فزِعتُ عندما رأيتُها، كانَ شكلُها - حقاً - مفزِعاً، وتساءلتُ: ما هذا الرجلُ؟ ولكنَّ "أحمدَ" ابنَهُ قد خطفَ قلبي

وأحببْتُـه، وكتمـتُ كمـدي وغيْرتـي، وتقربـتُ مـن أمّـه حتى أتمتـعَ بحملِـه وتقبيلِه، فكنتُ أدعوها لزيارتي، وألحُّ عليْها أن تبيتَ عندي متحملةً دلالَها الفجَّ وتبذُّلِها أمامي مع زوجي، ولكنى قد شُغِلْتُ عن ذلك ب "أحمدَ "الذي تركتْهُ لي تارِكةً علي مسؤوليتَه بلْ كانتْ تكيدُ لي أحياناً فتمنعُه عنِّي لأيامٍ طويلةٍ. فأذهبُ إليها بالطعامِ والهدايا لأشتري ودَّها حتى أتمتَّع بابنِ حبيبي في أحضاني، وأتتْ له بولدٍ ثانٍ ثم ببنتٍ، حاولتْ أن تبعدَهم عنِّي عندما لمستْ تعلقي وتعلقَ "أحمدَ " الشديدَ بي، كانتْ أنصحُ منّي وأوعَى.

عندمَا تأكدتْ أن زوجي ارتبطَ بالأولادِ، خبأتْ مالَها، وأعطتْ أمَّها كلَّ ذهبِها، وامتنعتْ عن أيِّ مساهمةٍ منها في البيتِ، ومهما عمِلَ و أظهرَ أياًّ من وجوهِه الحلوةِ أو الشرسةِ لا تُخرجُ له أيَّ مال .وبمرورِ الوقتِ استحيا أن يعملَ معَها ما كان يعذبُني به، فالأولادُ أمامَه وهو متعلقٌ بهم ولا يريدُ أن تهتزَّ صورتُه أمامَهم.، وعمِلَ في الكثيرِ من الأعمالِ، وتاجرَ، اختلسَ واحتال حتى يكفيَ بيتَه الآخرَ، وبدأ يلينُ لي، وتحولتْ معاملتُه، ويقولُ:

- تحمّلتِ كثيراً، لقد عرفتُ قيمتَكِ الآنَ، كنتُ أُهينُكِ وأقسو عليكِ وتحملتِ ما لا يستطيعُ أحدٌ تحمُّلَهُ، وعرفتِ أني طامعٌ في أموالِك وخيرِ إخوتِك، ولو كان لنا ولدٌ لم أكنْ لأتزوجَ أبداً.

(٦٨)

لقدْ أصبحَ كطفلٍ صغيرٍ معي، وأنا أحنو عليهِ وعلى أبنائِه، وأتحمَّلُ زوجتَه من أجلِه وأجلِهم.

مرتْ أعوامٌ أُخرى عندما كبُر أولادُه، وكبُرتْ مسؤوليتُهم، واحتاجوا لتواجُدِه أكبرَ وقتٍ ممكنٍ بعد انتهائِه من العملِ، فخصَّص لي يومَ الجمعةِ من كلِّ أسبوعٍ فقط ؛ليُقضيَه معي، ويتركُني ليلاً لحاجةِ الأطفالِ له.

وأثَّر في نفسيَّتي فراغُ البيتِ حوْلي فأصبحَ إخوتي يُرسلون لي بأبنائِهم وأحفادِهم، أو يأتُون لزيارتي وقضاءِ يومٍ معي، ولكنَّ الدنيا أشغالٌ.

رضيتُ بحالي، وكنتُ أنتظِرُ يومَ زيارتِه لي وأُحضِرُ له كلَّ ما يحبُّهُ، ورأيتُ من حنانهِ ما حُرِمْتُ منه كثيرا. مرِض، وقرَّر له الأطباءُ عمليةً، وفشلتْ وظهرتْ بعدَها أعراضٌ جانبيةٌ كثيرةٌ ضاعفَتْ من خطورةِ مرضه، و تناوبتُ مع زوجتِهِ الأخرى الإقامةَ معهُ في المشفى، فأجدُه في قُدومِي عليهِ يشكو منْها ومن سوءِ معاملتِها وضيقِها من هذا الوضعِ.

ضاعَ بهاؤهُ، وامتلأَ جسدُه في شهورٍ قليلةٍ، وأصبحَ خائرَ القُوى، تظهرُ عِظامُه من جلْدِه الخفيفِ الذي ترهَّلَ، وخَفُتَ صوتُه الجهورُ حتى كاد لا يسمعُ، وأصبحَ كتلةً صغيرةمن العظامِ في ملابسِه.

وفي يومٍ ما، أخذْتُ أستعدُّ للذهابِ للمشفى، وسمعتُ صوتَ العربة التي تنادي بأسماءِ المَوْتى في الشارعِ مُعلِنَةً بالمِذياعِ اسمَه واسمَ عائلتِه ونسبِهِ ومكانِ تقبُّلِ العزاءِ، كذَّبتُ أُذني أوَّلاً، ولكنَّهُ قد تكررَ النداءُ، لم أعرفْ هل أكملُ ارتداءَ باقي ملابسي أم لا.

نزلتُ حافيةَ القدمينِ أَجري لبيتِ أهلِه حيثُ العزاءُ.

كيفَ يموتُ ولا يُبلغُني أحدٌ، كيفَ أعرفُ بالخبرِ كالغرباءِ؟ مرتْ الأيامُ لا أدري بها، ولا أدري غرابةَ مشاعري.

فراغٌ كبيرٌ في قلبي، خوفٌ وقلقٌ ووحشةٌ.

لن أراه مرةً أخرى يحدثني وأحدثُه؟

ولكن هُناكَ راحةٌ تتسللُ لمشاعري، لقد ارتاحَ " إبراهيم " من الألمِ، لنْ يصرخَ الآن ولن يتعبَ بعد النزيفِ، و لن يتعذَّبَ والطبيبُ ينظفُ قيحَ جروحِه وصديدِها، لن يُكوَ بنظراتِ الاشمئزازِ أو الشفقةِ.

هو عندَ ربٍّ رحيمٍ أدعوه أن يغفرَ له ويرحمَه ويُدخلَه فسيحَ جناتِه.

تعجبَّ إخوتي من سكوني الغيرِ مبررٍ رغمَ علاماتِ الحزنِ والألمِ التي تظهرُ عليَّ، وحاولَ كلٌّ منهم أن يضمَّني لبيتِه، ولكنِّي أحببتُ الإقامةَ في المسجدِ بعد موتِه أجلسُ هناكَ لأُصليَ وأحضرَ دروسَ القرآنِ وتحفيظهِ، وسمعتُ من نساءٍ بوجود دارِ قريبةِ من المسجدِ، فطلبتُ من إخوتي أن أعيشَ بها لأكونَ قُرب المسجدِ

(٦٩)

وهـا أنَـا أزورُ قبرَه كلَّ يـومِ جمعـةٍ في نفسِ الموعـدِ الـذي كانَ يزورني بـه، لأحدثَه وأحكي له .

وهكذا تفرغتْ "أمينة" للعبادةِ وللعنايةِ بالأطفالِ الصغارِ في الميتمِ بجوارِ الدارِ يومياً. ويأتي إليها أبناءُ "إبراهيمَ" في الأعيادِ، ولا يمرُّ شهرٌ إلا ويزورُها أخٌ أو ابـنُ أخٍ. ورغـمَ ذلـكَ تـئِنُّ بشـكوى الفـراغِ بعـد مـوتِ " إبـراهيمَ " وتتعجلُ الأيامَ لتلحقَ به.

وأتعجَّبُ أنا من شـابٍ طمعَ في عجوزٍ، وإذ بـه يمرضُ ويهرمُ ويموتُ وتظلُّ هيَ بعدَه تشتاقُ إليهِ.

(٧٠)
مِرآةٌ تاسعةٌ

في نهايةِ اليومِ، والأوقاتُ التي تسبقُ الاستعدادَ للنومِ تحملُ لي الكثيرَ من الخـوفِ، أخشَى تـدافعَ الأفكارِ، واسـتيلائِها عليَّ ؛ ففكـري- طـوالَ اليـومِ- لاهٍ، ومشـغولٌ.

وتأتي هذه الأوقاتُ؛ فينفجرُ بركانُ مخاوفِي.

حيـاتِي كلُّهـا كانـتْ خوفـاً وترقُّبًـا، أخـافُ مـنَ الغـدِ، أخـافُ مـنْ مواجهـةِ الناسِ، أخافُ منْ كلِّ جديدٍ، أو كما تقولُ أمُّ كلثوم:

" يا خوفَ فؤادي من غد. آه، كم أخشى غدي هذا وأرجوه اقتراباً.

وهذا ما جعلَ حياتِي تتوقفُ كثيراً، وتتعكرُ.

الخوفُ من نتيجةِ أيِّ فعلٍ أقومُ بهِ.

حتى امتـدَّ الخـوفُ للسـانِي، خـوفٌ أن يفلـتَ بمـا أنـدمُ عليـهِ . فـآثرتُ أن أسمعَ، وأهزَّ رأسِي ؛فهذا يريحُ نفسَ منْ يحدثُني فيجدُ فيَّ المستمعَ المتفهمَ.

حثثتُ ذاكرتِي ؛ لتسعفَني بما يُشغلُني حتى يحطَّ على النومِ.

ولكنْ تسلَّلتْ لي الأفكارُ مرةً أخرى كي تقلقَنِي، وأدركْتُ، أنى لهذا أُعجبتُ "بنعمةَ " عندما عرفتُ حياتَها؟ رُغمَ أنَّ بدايةَ حكايتِها كانتْ مثلي- تخوفاً، وتراجعاً، وضعفا، ورضا بالواقعِ مهما كان مراً، خوفاً من المجهولِ القادمِ.

حكت لنا "نعمة" ذات أمسية " بغرفةِ الحياةِ" :

- تقدمَ لي زوْجِي وهـو مـن نفـسِ العـائلـةِ، وإنْ كانَ مسـتوى أهلي الثقـافيِّ، والماديِّ أعلى منهمْ، حتى أن مستوايَ العلميَّ كانَ أعلى من مستواهُ قليلاً، ولـم أُبَـالي وأهلي بهـذا الفـارقِ؛ فـالمهمُ عنـدنَا هـو الإنسـانُ، ولقـدْ شـهِدَ لـهُ الجميعُ بأنهُ هادئٌ خلوقٌ.

وللفـارقِ في المسـتوى الاجتمـاعيِّ لـم يجـدْ أبي، وأمي غضاضـةَ في تخفيـفِ طلبـاتِهم التي يطلبُهـا أهـلُ العـروسِ، كتقاليـدِنا العائليـةِ، بـلْ مـدوا يـدَ المساعدةِ حتى أعيشَ فِي نفسِ المستوى الذي تعودتُ عليه، واستمرتْ – أيضا - مساعدتُهم لبعدِ الزواجِ .

عانيتُ من غيرةِ زوجِي، وشكِّه في بدايةِ الخطبةِ، ولقلةِ خبرتِي ظننتُها حبًّا، وكنتُ آملُ عندمَا يعرفُني أكثرَ سيقدِّرُ أخلاقي، وصفاتي، ويعرفُ منْ أنَا، ويَطمئِنُّ قلبُه.

أشياءٌ كثيرةٌ تغاضيتُ عنهَا، ولم أتنبهْ في حينِها لخطورتِها، وكان يحدُوني الأملُ أننا بالعشرةِ ستصفو الأجواءُ بيننا.

بـدأ بعـد الخطبـة بقليـل بانتقـادِي والتضـييقِ عليَّ. لا تُحـدثي فلانـةً. لا تَضحكِي هكذا. صديقتُكِ لا تعجبُني. لا تزورِيها.

حتى بعـدتُّ - دونَ أن أشـعرَ- عمَّـن أعـرفُهم على الـرُّغمِ مـن قلـةِ معـارفِي.

(٧١)

أتَى وقتُ الزفافِ، وصدمَني بأنْ ثارتْ ثورتُه؛ لتأخري قليلاً، ومد يدَه عليَّ ضارباً.

خففَتْ أمي منْ جزعِي، وغضبِي، وقالتْ التمسي له العذرَ، مرْتبكٌ ومتوترٌ، ولم يكنْ يقصِدُ.

ضيقٌ على في كلِّ شيءٍ، وحاسبني حتى على الأنفاسِ. تخيلوا! في يومِ الصباحيةِ أتى أبي، وأمي لزيارتِي، والاطمئنانِ عليَّ، لم يجعلْني أقابلُهم بملابسِ البيتِ العاديةِ وألزمَني أن أرتديَ ملابسَ الخروجِ كأنَّهم أغرابٌ.
متحججاً:
- ألَا تخجلينَ أنْ تخرُجي هكذا أمام أبيك؟
ومرَّرْتُها حتى لا يقلقَ عليَّ أبي، وأمي إن خرجتُ عليهم باكيةً.
لم يكن راتبَه من عملِه يكفِي المستوى المعيشيّ الذي تعودتُ عليهِ، فكانَ أبِي يأتيني في وقت عملِ زوجِي وهو محمَّلٌ بخزينِ للبيتِ ويمضي مسرعاً، حتى لا يُحرجَ زوجِي إن وجدَه.
اعتادَ "سامي " الكذبَ. يختلقُ أسباباً عدةً للخلافِ، وإظهارِ عصبيةٍ ليستْ أصيلةً فيهِ - فهو باردٌ بطيءُ الانفعالِ - لتخويفِي وإرهابِي حتى يغيرَ ما يريدُه بي .

يأتي من عملِهِ فجأةً ليعرفَ ماذا أفعلُ. ويسألُني أسئلةً عجيبةً لم أدركْ - وقتها- مقدارَ ما فيها من شكٍّ، وريبَةٍ، وإهانةٍ لي، واتهامٍ، إلا بعد نُضُوجي بسنواتٍ.

يماطلُ في سدادِ أيٍّ منْ ديونِه ؛حتى أضطرَ أن أسددَ ديونَه أنا، وأهلي، وعندمَا أُحدثُه في ذلك، يقولُ: لمْ أطلبْ منكمْ شيئاً، ويلومُ عليَّ، وعلى أهلِي فأخبرُه أن أبي معروفٌ بينَ الناسِ، ولا يرضى بالفضيحةِ، وأن يقالَ أنَّ زوجَ ابنتِهِ مدِينٌ.

وأخرجُ أنَا، وأهلي منْ هذَا مدانينَ في عقلِهِ، وفكرِهِ بدلاً منْ أن يشكُرَنا.

حتى في يومِ أنْ علمتُ أني حاملٌ -بعد تأخرِ سنةٍ- لم يشعِرْني بالفرحةِ، وكأنَّ الأمرَ أقلُّ من العادِي.

لا يمرُّ يومٌ إلا وهناكَ مشكلةٌ حتى وإن لمْ يكنْ هناكَ سببٌ، أو أساسٌ.

وأمي تصبِّرُني - هذا هو الحالُ في البدايةِ - قائلةً:

- سوف تتفاهمانِ على مرِّ الأيامِ.

فكرتُ في الطلاقِ كثيراً، ولكنَّ أمي كانتْ تخشَى كلامَ الناسِ، وكيف أُطلَّقُ ولم يمضِ عامٌ على زواجِي. خِفتُ من كلامِ الناسِ وخِفتُ من خوفِ أمي.

عندمَا وجدتُ أنَّ طمعَه قد زادَ، وأنه يلومُ أهلي على أيِّ أمرٍ.

وأن مساعدتَهم لنا تضايقُه ظاهريًّا ؛ فينكد عليَّ عيْشتِي، وإن كان هوَ يقبلُها ويستسيغُها، فطلبتُ من أهلِي الكفَّ عن مساعدتنا، عسى أن يعتدلَ حالُه، ويكف عن غيرتِه من أهلي.

وعشتُ في ضنكٍ وجوعٍ، وتهلهلتْ ملابِسي التي كانتْ من أفضلِ الماركاتِ، ولم يفعلْ هو لذلكَ شيئاً، طلبتُ منه باللينِ ثم بالشدةِ.

(٧٢)

وانتهى أمري بانهياري، وصُراخي من الحالِ المُزري الذي وصلتُ إليهِ، وكنتُ أجاهدُ ألَّا يرى أهلي أثرَ ذلكَ عليَّ.

ملأَ قلبي بالحيرةِ، والحسرةِ، وجعلَ لديَّ إحساساً أني لستُ أنثى كاملةً.
وأن عيوبي كثيرةٌ، كانت نظراتُه لي تُخجِلُني من نفسِي، وتجعلَنِي أبحثُ عن عيوبٍ، ولا أجدُها .
في كلِّ تصرفٍ وفي كل قولٍ أنا مخطئةٌ، عديمةٌ التربيةِ، عديمةُ الأخلاقِ.
رُغم لسانِي العفيف، وما تربيتُ إلا على مكارمِ الأخلاقِ.
عملتُ، وجعلتُ كلَّ ناتجَ عملي للبيت مجبرةً، وإلا لا طعامَ، ولا كساءَ لي، ولأولادِي. تحملتُ المسؤوليةَ الماديةَ؛ لمماطلتِهِ وكذبِهِ المستمرِ؛ فتتعددُ حكاياتُه الكاذبةُ:
لقد سرقتُ، ضاعَ منى مبلغٌ كبيرٌ في العملِ، ولا بُدَّ أن أسددَهُ، عطلٌ كبيرٌ في السيارةِ ولا بُدَّ من إصلاحِها بمبلغٍ كبيرٍ.......
لمْ أبالِ فقدْ كانَ رزقِي وفيراً . وهكذا تربيتُ في بيتِ أبويّ، لا فرقَ بينهُما فهمَا يتعاونانِ في الحياةِ سوياً، ولا فرقَ بينِ مالِ أبي وأمي، وعاشوا في حبٍّ وهناءٍ.

حتى في تكاليفِ زواجِ إخوتِه كانَ يأخذُ- بدونِ إذنٍ- من نقودي التي أحتفظُ بها في دولاب مفتوحٍ .

حتى جاءَ يومٌ أصابَ ابني عارضٌ شخَّصهُ الأطباءُ بأنهُ ورمٌ سرطانيٌّ. ولا بُدَّ من استئصالهِ. انتظرتُ منهُ أن نسْعى في الكشفِ وعلاجِ ابني، ولَا أجِدُ سوى قولِه :ليسَ معِي نقودٌ الآن. سوفَ أستلف. وهكذا ظلّتْ أيامي تعيسةً ..
حتى هاتفتني أمي باكيةً:
- سأرسلُ لكِ النقودَ، حرامٌ عليكم الولد.
والحمدُ للهِ اطمأننت عليهِ وكان التشخيصُ الأولُ خاطئاً.
ومرَّ الأمرُ، ولكنْ بعدَ عامٍ كنا نتحدثُ، فقال لي:
- كانَ معي يومها عشرونَ ألف جنيهٍ تحسُّباً أن يحتاجَ الولدُ لعمليةٍ.
صُدمتُ. وتساءلت:
- ولمَ سوَّفْتَ بالشهورِ في عرضِهِ على الأطباءِ؟ لمَ فعلتَ هذا حتى أجبرْتَ أمي على إرسال النقودِ؟ أهانَ عليكَ ابنُك، وهو المهددُ بالموتِ كتشخيصِ الأطباءِ الأُوَلِ؟ أكانَ لديْكَ المالُ تكتنزُه وأنتَ ترى حيْرتِي، ودموعي، وانكساري وأنا أطلبُ من الأطباءِ تخفيضَ سعرِ الأشعةِ والتحاليل حتى يُكفِّي ما معِي؟

يومَها، وبعدَ أربعِ سنواتٍ من الزواجِ أفقْتُ على بشاعةِ بخلِهِ واستغلالِه، ناهيكَ عن سوءِ خُلُقِهِ، ومعاملتِه السيئةِ لي، ولأهلي، وبدأتُ أعي ما أنَا فيهِ.

فكَّرْتُ مرةً أخرى في الطلاقِ، ولكنه هددني أنهُ سيأخذُ منّي ابني إن فكرتُ بهذا.

وأصبحتُ حريصةً أكثرَ على مالِي الذِي يتبقَّى بعدمَا أُتمُّ الصرفَ على كاملِ شؤونِ البيتِ.، وحرصتُ على الاجتهادِ أكثرَ في العملِ على أن أُؤَمّنَ أولادِي تحسباً لموقفٍ كالذي مررتُ بهِ معَ ابنِي.

(٧٣)

لمْ يكتفِ بكل ما كانَ، بل كانَ كسولاً في العملِ، من الممكنِ أن يتعطلَ عنهُ بالعامِ والعامينِ، ويكتفي بأنْ يتاجرَ في أشياء خفيفة، لا أعلم عنها وعن مكسبِها شيئاً حتى لا أطالبُه.

كنتُ مجبرةً على تحمُّلِ مصروفاتِ البيتِ، فما ذنبُ أولادي؟ وكان يستغلُّ مالي، ويعيبُ وينتقدُ على طعامِي وحياتِي وملابِسي ونظافتِي، وما أشتريهِ منْ أشياء وملابسَ لأولادِي. في نظره قد ضُحك عليَّ، لا أعرفُ شيئاً، خائبةٌ، وأنا حيِيَّة أن أردَّ له الصاعَ صاعينِ. فأسكتُ وأتحملُ حتى لا يسمعَ الأولادُ ما يسوؤهمْ.

ومضتْ بي الحياةُ حتى ضِقتُ ذرْعاً بهذهِ الساقيةِ التي أدُورُ بها، عملٌ خارجُ البيتِ أستكملُ مثلَه بالبيتِ، ولا أنامُ إلا سويعاتٍ قليلةٍ لا تكفي، انتبهتُ للدمارِ الذي أعيشُه عندمَا أتتني ابنتي في يومٍ وأنا قادمةٌ من عملِي وأستعدُّ لإعطاءِ الدروسِ في المنزلِ وقابلتني على البابِ:

- ماما! "هناء " أنبتتْ أولَ سنّ.

جريْتُ على غرفتِها، وأحسستُ بمدى ما أَخسَرُهُ في لهثِي وراءَ العملِ لأكفيَ نفسِي وبيتِي. ضيعتُ على نفسِي فرحةَ أولِ ضحكةٍ، أولِ سنٍ، أولِ خطوةٍ.

لا. فليتولَّ هو المسؤوليةَ، وأخبرتهُ أني بنهايةِ العامِ سأمتنعُ عنِ العملِ، وليكْفِ هوَ بيتَه، وأنا سأتفرَّغُ لأولادِي وحياتي، ولن أعملَ، وكفى ما فاتَني من نعمٍ وابتساماتٍ وفرحاتٍ وسطَ أولادي.
لمْ أقصِّرَ معهمْ في شيءٍ ماديٍّ أو معنويٍّ، فكلُّ حبي واهتمَامِي بهمْ في كلِّ لحظةٍ فراغٌ من عملي هي لهمْ، حتى أني كنتُ أشتهي أن أنامَ لساعةٍ في وسطِ النهارِ، ولا أقدرُ، أو أتمتع بشربِ كوبٍ من الشاي وأنا جالسةٌ بدونِ عملٍ، أجلسُ - فقط -ولوْ لربْعِ ساعةٍ بدونِ تفكيرٍ أو عملٍ أو مسؤوليةٍ، ولكني لا أستطيعُ.
أفقتُ منَ الغفلةِ، ما نفعَ المالُ وأنا أضيِّعُ أجملَ أيامي بعيداً عن أولادِي؟؟ مالي بهذا التعبِ والضيقِ الشديدِ الذي يجعلني أتعاملُ بعصبيةٍ وضيقٍ مع أولادِي من كثرةِ المسؤوليةِ والإرهاقِ وعدمِ ادخارِ الوقتِ.
بينما هو نائمٌ أو يشاهدُ المبارياتِ والأفلامِ. قد أجري أنا منْ مركزِ دروسٍ لآخرَ، وعندما أعودُ للبيتِ تكونُ هناك مجموعاتُ الدروسِ تنتظرني، وما بينَ درسٍ وآخرَ أطهو وأغسلُ وأنظِّفُ وأرعى أولادِي حتى تأتىَ عليَّ صلاةُ الفجرِ وأكادُ أكونُ قدِ انتهيتُ من أعمالي فأنامُ كالقتيلِ ؛ لأستيقظَ بعد سويعاتٍ لأبدأَ نفسَ الدورةِ منْ جديدٍ.
يكفيني شقاءُ عشرِ سنواتٍ، ولأحتوي أبنائي في قلبي، ولأتمتَّعَ بمعايشةِ كلِّ مراحلِ أعمارِهم سأتفرغُ لهمْ ولحياتِهم.

حـاولَ أن يقنعَني أنـهُ يحتـاجُ لمبلـغٍ مـنَ المـالِ لإقامـةِ مشـروعٍ حتى يزيـدَ دخلُـه، ورفضتُ كلَّ محاولاتِـه، فلكمْ خُدعتُ سابقاً، وفي النهايةِ يخبرني بحجـمِ خسـارتِه، وأنـه مـدينٌ حتَّى لإِخوتـهِ، وأدورُ في نفسِ الدوامـةِ مـن جديدٍ.

(٧٤)

وسارتْ بي وبأولادي الحياةُ من ضيقٍ لضيقٍ أكبرَ، ولولا أبويّ لمددتُّ يدي لأشحذَ طعامَ أولادي من أيدي الناسِ.

وكمْ جعلني كسلُهُ وبخلُه أندمُ على تركي للعملِ، وحاولتُ أن أعودَ للعملِ بعدَ مرورِ سنواتٍ قليلةٍ ؛ فهوَ ليسَ بقادرٍ على المسؤوليةِ، ولا يكفي أبنائي باحتياجاتِهم الأساسيةِ.

لكنَّ الزمنَ قد تغيَّرَ، ولم أستطِع أن أعودَ لعملي فلقدْ برزَ فيهِ غيري، واشتهرَ واكتفى بهمُ الطلبةُ، وحاولتُ أن أستغلَّ موهبتي في الأعمالِ الفنيةِ ولكنَّني لمْ أنجحْ في هذا أيضاً ؛ لأنه يحتاجُ لعلاقاتٍ ومهاراتٍ اجتماعيةٍ وحركةٍ بينَ الناسِ، وهو منْ قلَّلَ لديَّ الثقةَ في نفسي، وجعلني أخافُ أن أتحدَّثَ معَ الناسِ أو أختلِطَ بهِمْ، فعلى مرِّ الأعوامِ كانَ ينتقدُني، ويكتُم أحاديثي في نفسي واصفاً إيَّايَ بأني شخصيةٌ مستفزةٌ في حديثي. وأنَّ كلَّ آرائي خطأٌ، فأصبحَ لساني عاجزاً عن البيانِ أمامَ أيِّ إنسانٍ.

عندمَا يمُنُّ اللهُ عليهِ بعملٍ رِزقُه واسعٌ كانَ يكذِبُ، ويخبرُني: أن الرزقَ قليلٌ، ويُخرِجَ المالَ كأنَّهُ يقتطِعُه من لحمِه، يُخرجُه بعدَ إلحاحٍ وبكاءٍ وصُراخٍ منّي، كأنَّه يتلذذُ بأني في حاجةٍ، وأكادُ أُذَلُّ من أجلِ توفيرِ أقلِّ القليلِ لأولادي.

يخرجه بعدما ييأسُ تماماً أن يمُد لي أهلي أيديَهم بالمساعدةِ.

كم عانيتُ جوعاً وشظفاً بالعيشِ وهو لا يُبالي، وأنا أكتُمُ كلَّ هذا عن أهلي حياءً منّي وحتى لا أشغلَ قلبَهم على حالي وحالِ أولادي.

ضِقتُ ذرعاً به وبوجودِه، وأنفاسُه في المكانِ أكرهُها وأحسُّها أثقالاً تكتمُ أنفاسي كأنَّهُ يسحبُ الهواءَ والحياةَ منّي بوجوده.

كابوسٌ يُثقِلُ قلبي وعقلي، ويهدُّ كياني ويفتِّتُ أعصابي.

أسعدُ أوقاتي وقتُ نومه أو مغادرتِه البيتَ، وقتَها فقط ترتخي أعصابي المشدودةُ وأستطيعُ أن أحسَّ بدبيبِ الحياةِ، وأرتاح قليلاً من توقُّعِ الأذى في كلِّ لحظةٍ منه أياًّ كان نوعُهُ: أذى لفظيٌّ أو نظرةُ تعالٍ واشمئزازٍ، يرميني بها بلا مناسبةٍ، أو نظرةُ تحقيرٍ كلما نطقتُ بأيِّ جملةٍ أو تحدثتُ مع أولادي، فهو دائمُ الانتقادِ لأتفهِ الأشياءِ، ينتقدُ الشيءَ وعكسَهُ، لمَاذا الأولادُ نيامٌ؟

لماذا الأولادُ متيقظون؟

لماذا لبستِ هذا؟ لماذا لم تلبسي هذا؟ لماذا؟ لماذا؟ أسميْتِهِ " سامي لماذا"؟.

دائماً أكونُ في وجودهِ متحفزةَ الأعصابِ، مشتعلةَ المشاعرِ، أنتظرُ آخرَ اختراعاتِه في فنِّ النكدِ والاستفزازِ.

ومضتْ بي الأيامُ وأنا أتجنَّبُ أيَّ احتكاكٍ بهِ، أقومُ بواجباتي نحوَه بما يرضى به اللهُ بدونِ أي رغبةٍ منّي في العطاءِ أو بذلِ أيِّ مجهودٍ إضافيٍّ. الواجبُ فقط.

فقط في انتظارِ الغدِ.
هكذا مضتْ حياتي في الانتظارِ، أتحمَّلُ، وأصبرُ في انتظار الغدِ، والغدُ الذي أنتظرُه و آملُه لا يأتي أبداً.
تتكرَّرُ الأيامُ، واعتادَ على الرّتابةِ، وقتلِ كلِّ شيء: الخوفِ، القلقِ، الغربةِ، ولكنَّهُ لمْ يستطعْ أن يقتُلَ الأملَ في نفسي أبداً، وظلِلْتُ أنتظرُ الأملَ.
وللسخريةِ المريرةِ أتى إليّ ابني في يومٍ، وشكوْتُ لهُ، فقال :

(٧٥)

- ولكنَّه يحبُّكِ يا ماما!.

- يُحبُّني؟! بعد ماذا؟! هذا الحبُّ أتى متأخراً ثلاثةً وعشرينَ عاماً.

أتى بعدَ أن أمسيتُ فتاتَ إنسانةٍ، لقدِ انتَهى أيُّ شعورٍ بالحُبِّ داخلي، وجروحي عصيَتْ على الشفاءِ.

بعدَ ماذا؟؟

أبعدَ ما تركَ بداخلي خوفاً وفزعاً ويأساً، وزرعَ بداخلي إحساساً بالضآلةِ؟

أبعدَ أن أراني سوادَ الأيامِ؟

الآنَ أحبَّني بعدمَا تأكدتُ نفسُه المريضةُ بأنَّ فريستَه بريئةُ النفسِ، طاهرةُ القلبِ والوجدانِ، مخلصةٌ ككلبٍ وفيٍّ؟ وأنَّ تعذيبَه وتعاويذَه وطقوسَ حقدِه وشكوكَه وبخلَه الماديَّ والمعنوّيَّ، لم تكنْ لتُظهِرَ ما كانَ يظنُّه شيطاناً بداخلي؟

بعد ما انكسر ما بداخلي، ولا ينفعُ معهُ أيُّ إصلاحٍ أو حبٍّ، هلْ حبُّه الناميُّ حديثاً سيُحيي الميتَ داخلي؟؟

يحبُّني؟ وهو ما زالَ على بخلِه وأنانيتِه وكذبِه، فما زالَ يَخصُّ نفسَه بالطيباتِ منْ ملبسٍ ومأكلٍ وتسليةٍ، ولا يرمي لنا إلَّا الفتاتَ بعد إلحاحٍ ومذلةٍ؟ يحبُّني؟؟. هو يحبُّ نفسَه، ويحبُّ وجودي مُطيعةً تحتَ الطلبِ ومتاحةً فيستنزِفُ البقيةَ الباقيةَ من حياتي وأنفاسي.

أيحبُّ ويُبكي الجلادُ فريستَه بعدمَا وضعَها بالأسرِ، وقتلَها قتلاً بطيئاً؟؟ لا فائدةَ يا بُنيِّ.
من ماتَ لا يُحييهِ سوى اللهِ يومَ القيامةِ، والقيامة لم تأت بعد.
كمْ أخبرَه أعمامُك أن يحمدَ اللهَ على وجودِ زوجةٍ مثلي في حياتِه، وأن يرَى مُعاناتِهم معَ زوجاتِهم حتى يعرفَ النعمةَ التي وهبَها اللهُ لهُ.
ولكنْ هيهاتَ، كيفَ لأعمى القلبِ أن يَرى الحقيقةَ التي يراها القاصي والداني؟
هي أيامٌ أعيشُها يا بُنَيِّ، وكما يُيسِّرُ لي اللهُ سأسيرُ.
كبرَ أولادي واطمأننتُ على حياتِهم وتقدمتُ برفعِ قضيةِ خُلعٍ.
هاجتِ الدنيا حولي وانتقدتني حتى وسائلُ الإعلامِ بسخريةٍ نالتْ منّي ومنْ كرامتي :
*عجوزٌ في الستينَ تطالبُ زوجَها بالخلعِ خشيةً على نفسِها من الفتنةِ.
*وعناوينٌ أخرى تُخجِلُ وتُجافي الحقيقةَ.
* وبرامجُ تستضيفُ علماءَ نفسٍ معقَّدينَ نفسياً متسائلينَ : الآنَ وقدْ بلغتْ هذا السنَّ؟ تريدُ أن تَحيى؟ وتتركُ زوجَها المسنَّ وحيداً؟؟ أينَ كانتْ في السنواتِ الماضيةِ، وما الذي دفعَها لهذا الآنِ؟ وتلميحاتٌ رخيصةٌ، كأنَّ لمْ يكفيني ما نلتُه من تعذيبٍ وتشكيكٍ في أيامِ جحيمي الماضيةِ؟
ألَا يعرفون أن الأمَ تتحملُ من أجلِ أبنائِها وهنائِهم ما يفوقُ الطاقةَ، وأني صبرتُ حتى يصلون لبَرِّ الأمانِ؟

كلٌّ منْ أبنائِي استقرَّ في حياتِهِ وعملِهِ، فلِمَ أضغطُ على روحي وأعصابي بمرافقةِ كتلةٍ منَ الغمِّ؟

تحمَّلتُ من أجلِ أبنائي، كانوا أُنسي وجليسي وأملي.

(٧٦)

والآن، قد فرغَ منهمْ البيتُ إلا في مناسبات قليلة متناثرة، ماذا أفعل في أيامي وساعاتي بدونهم؟ كيفَ أحياها وحدي مع مُعذِّبي؟ هُناكَ حاجزٌ نفسي منِيعٌ بيني وبينِه بناهُ هو داخلِي وعزَّزَ أساساتِه يوماً بعد يومٍ.

وكيفَ يتحملُ قلبي وأعصابي الواهنةِ حبَّه الذي ظهرَ كطائرِ "الرخ" فجأةً، منْ أينَ لي -وأنا في الستينَ- بالقدرةِ على تحمُّلِ حقدهِ وغلهِ وشراستهِ عندمَا لا أُقابلُ مظاهرَ حبِّهِ بالتهليلِ والفرحةِ وكلماتِ الحبِّ بالمقابلِ؟ كيفَ أعيشُ باقي أيامي في هذا الجوِّ المشحونِ المتربصِ؟؟

لم يفهمني إلا أبنائي الذين عاشوا وأحسُّوا عذاباتِي، وتفهَّمُوا اشتياقِ قلبي وعقلي للراحةِ .

سكتتْ لتريحَ أنفاسَها المتسارعةَ.

- أأقولُ لكمْ سراً، ولا تسخروا مني؟؟

نطقْنا أخيراً بعدَ سكوتٍ وصمتٍ فرضَهما علينا حكايتُها وشدة تأثرِها وتسارعِ جُملِها، كأنَّها تريدُ سريعا أن تُزيلَ بالقصِّ عبْئاً ثقيلاً تنوءُ به، فنطقنْا جميعاً في نفسِ الوقتِ ردا على سؤالها :

- ماذا .

أجابتْ وهي تضحكُ وتكفكفُ دموعَها :

- كنتُ فزعةً أن أكونَ زوجتَه في الجنةِ، وطلبتُ الخلعَ فأنا لم أستطعْ أن أتمتَّعَ بحياتي في الدُّنيا فلأتمتعَ بها في الجنةِ بدونهِ. هههههه. لهذهِ الدرجةِ كرَّهْتُهُ كلَّ خليةٍ فيّ.

وكانَ يومُ خلاصي في المحكمةِ يومَ عيدٍ.

بحثتُ عنْ عملٍ ولو بسيطٍ أقضي به وقتي وحتى لا أكونَ طفيليَّةً على حياةِ أولادي، كفاهم ما مروا بهِ من ضيقِ نفسي وتشتُّتِ مشاعري وكبتٍ وهم صغارٌ فلنعشْ حياتَنا براحةٍ وبدونِ قيودٍ وضغوطٍ، وكفاهم حملُهم همي، وهم يروْن معاناتي من صغرِهم.

جرَّبْتُ أن أعملَ عدةَ أعمالٍ صغيرةٍ. ووجدتُّ استحساناً لحلوى وفطائرَ أقومُ بصنعِها لأولادِي في المناسباتِ ؛ فعملتُ في هذا المجالِ وروَّجَ لي أبنائي.

وفى مرةٍ طُلبَ منِّي حلوى لاحتفالٍ هُنا في الدارِ وأتيتُ أوصِّلُها بنفسي، وأعجبَهم ما صنعتُ، واستعانتْ بي الدارُ في عدةِ مناسباتٍ وتسللتْ راحةٌ نفسيَّةٌ بداخلي في الأيامِ المتباعدةِ التي كنتُ أقضيها هنا أُعِدُّ وأعرضُ منتجاتي، حتى استقرَّ عزمِي أن تكونَ البقيةُ الباقيةُ في حياتي هُنا معكمْ، ورغمَ معارضةِ أبنائي ولكنَّهُمْ تركوا لي حريةَ التجربةِ، وكانوا يظنُّون أنى سأتراجعُ بعدَ عدةِ أيامٍ وأعودُ لأحضانِهم ورعايتِهم. لكنِّي أشفِقُ عليهم منْ هذهِ المشقَّةِ، وشقائِهمْ على أنفسِهمْ محاولةً لتعويضِ أيامَ عذابي السابقِ

على حسابِ راحتِهِم وراحةِ أولادِهم. وها هي أيامي هنا سعيدةٌ ولا أُعدَمُ وسيلةَ اتصالٍ ولقاءٍ بهِمْ بينَ الحينِ والآخرِ.

تقلَّبتُ في سريري شاردةً من أفكاري وهجومِها عليَّ وأنا وحيدةٌ يخيفُني دائماً ما قبلَ النومِ.

(٧٧)

إنَّ حكايـةَ "نعمـة " هـذهِ تتشـابهُ في أغلـبِ تفاصـيلِها مـع حيـاتي، ولكنَّهـا اختـارتْ النهايـةَ بحـزمٍ وقـوةٍ وعزيمـةٍ، أمَّـا أنـا فظلِلـتُ في الانتظـارِ كالمعتـادِ بتخاذُلٍ وقلبٍ واجفٍ خائفٍ من عواقبِ أيِّ أمرٍ أو قرارٍ اتخذه، حتى أتى أمرُ اللهِ، وماتَ زوجي وانتهتْ عذاباتي، رحمهُ اللهُ وسامَحهُ.

كما أنَّ سببَ حضوري للدارِ يختلفُ عن أسبابِها، فلقدْ أحسستُ - ومنذ زمنٍ- أن طلباتِي وأنِّ وهنتُ صارتْ ثقيلـةً على حبـاتِ قلبي رغـمَ حـبهِم الشديدِ لي.

لاحظتُ ضيقَ صدورِهمْ وعبسِ وجوهِهم، وأسمعُ منهمْ كلمـةَ أُفٍّ التي تحرقُ قلبي وتخترقُـه كسكينٍ إذا طلبتُ شيئا لي أو طلبتُ مساعدتَهم في فهمِ أمرٍ من الأمورِ، أو طلبتُ رأيَهم في شيءٍ يتعلَّقُ بي، أو تحدثتُ، ووجدتُّ الآذانَ والقلوبَ منصرفةً عنِّي وعنْ حديثِي، حتى أني أسكتُ فجأةً فلا يعرفونَ أني قطعتُ حديثي ولمْ أُكملْه، ويظنون أنى أنهيتُه.

أرى الضيقَ والتبرمِ والتسويفِ فأنكمشُ داخل نفسي، وأبتعدُ بعيوني وقلبي حزناً.

ها أنَا في أوجِّ قوتي وقدرتي وألقَى هذا منهُم.

يا ويْلي إن عجزتْ قوتي عنْ أداءِ واجباتي تجاهَ نفسي، ماذا سيفعلون بي؟ وما مصيري؟؟؟.

أدركتُ أنْ لا أحدَ كالأمِّ.

أبذلُ عمري وراحتي ولا أضيقُ بخدمةِ أولادِي، وأجدُ لذةً في ذلكَ حتَّى وإن لمْ أجدْ مقابلَ بالعرفانِ. أرتاحُ بالبذلِ لأحبابي مهما لاقيتُ من شقاءٍ وتعبٍ، بل يهونُ تعبي باكتفاءِ رغباتِهم وتلبيتِها.

- ((إن الأشجارَ تُعطِي لتَحيى، فإن لمْ تعطِ عرَّضتْ حياتَها للخطرِ)) *

((منَ الناسِ من يعطُونَ بفرحٍ، فيكونُ فرحُهم هذا هو مكافأتِهم عن عطائِهم))*

ولكني قد وقعتُ في خطإٍ تقعُ فيهِ معظمُ الأمهاتِ، أُعطِي وأبذلُ لدرجةِ إهمالِ نفسي ونسيانِها؛ فأصبحَ هذا هو الوضعُ الطبيعيُّ ومكانتي، حتى يُظنَّ أن لا حقوقَ لي، وأعيشُ في كبرِ سني في نفسِ التضحيةِ والبذلِ الذي سننتُه لنفسي في شبابي أقفُ بالساعاتِ، أبذلُ الجهدَ وأدَّخرَ لهمْ كلَّ جميلٍ، وأحرِم نفسي.

ماما لها الكوبُ المكسورُ.

ماما لها كسرُ الخبزِ.

ماما لها ما يتبقَّى من فتاتِ الكعكِ.

ماما تشربُ قهوتَها باردةً وهي واقفةٌ حتى تنتهيَ من كيِّ الملابسِ، وفي الأخيرِ ماما لها ما يتبقَّى من وقتٍ - إن تبقى وقت -واهتمامٍ بعدَ جميعِ البشرِ حتى نفذَ رصيدي.

كلُّ أفٍّ وكلُّ عبوسٍ وكلُّ لمحةِ ضجرٍ ليسَتْ من رصيدِ حبي لهمْ، فهوَ بلا نهايةٍ وبلا حدودٍ ولكنْ.. من رصيدِ صبري وتحمُّلي.

أحسستُ بعدمَا كبروا أني صرتُ منسيةً . اهٍ من المنسي وإحساسِه بالخذلانِ والضياعِ.

إنَّ هذا يجعلُ عندَه مناعةً للفكرةِ ويبقَى من المستغرب أن يسأل عنهُ أحدٌ أو يهتمُّ به.

(٧٨)

أودُّ أن أصـرخَ: لا تنسَـوا النَّـاس في غمـرةِ فـرحِكم وانشـغالِكم، فعنـدَ عـودتِكم وتـذكرِكم سيكونُ الفـراغُ والتفكيرُ والـوحـدةُ قـد فعلـوا الأفاعيـلَ بعقولِهم وعواطفِهم وستجدُهم تلقائياً، يرُدُّوا عليكَ:

- ياااااااه، ألَا زلتَ تذكُرني!! "

كرهتُ هـذا الشـعورَ بالخـذلانِ وقلـتُ لا بُـدَّ أن أبتعـدَ حتى لا يسـيطرَ عليَّ وعلى عقلي وعـواطفي. فليتـذكرْني من تـذكَّرَ، وليـنسَ من ينسَى، ولكنِّي لـن أظلُّ قريبةً أرى نسيانَهم لي بعيني.

وكالعـادةِ تغلَّـبَ عليَّ خـوفي ؛ فـآثرتُ الانـزواءَ والابتعـادَ ولسـاني يُـردِّدُ:

ثقُلتْ عليكَ مؤنتي وإنِّي أرَاها واهيةً

فافرحْ فإني ذاهبٌ متوجهٌ في داهيةٍ *.

....

* جُبران خَليل جُبران.

*جُبران خَليل جُبران.

* حافظُ إبراهيم.

(٧٩)
مِرآةٌ عاشِرةٌ

رُغمَ نومي فِي وقتٍ متأخِّرٍ؛ بفعلِ قلقِي ومخاوِفِي، استيقظتُ مبكراً بفضلِ حركةٍ غيرِ عاديةٍ ؛ فصحوتُ رُغمَ حاجتِي للنومِ؛ لأشاركَ فِي هذِهِ الحركةِ والعملِ .

اليومُ خاص جداً، لديْنا احتفالٌ و الكلُّ يتحركُ بفرحةٍ، وسعادةٍ .

سببُ هذهِ الفرحةِ عمُّ محمد – هوَ يصرُّ أن نناديَه هكذَا- رفيقُنا فِي قسمِ الرجالِ.

جذبَ القلوبَ، لهُ سحرٌ وكاريزما، يفوقُ أوسمَ ممثلِي السينما، والأبطالِ قديماً، وحديثاً، وفي كلِّ زمانٍ .

منْ منا لمْ تقعْ في هوى هذا الرجلِ المبتسمِ دائمًا المجلجَلِ الضحكةِ بعمرِه الذِي ناهزَ التسعينَ عاماً، والمتواجدُ في قسمِ العاجزينَ عن خدمةِ أنفسِهم، غرفتُه عامرةٌ دائماً بالزوَّارِ: نحنُ، الأطباءُ، الممرضاتُ، العاملون، المعجبون منْ طلبةِ علمِ الاجتماعِ الشبابٌ، والشاباتُ الذينَ يقومُون بعملِ أبحاثِهم الميدانيةِ في الدارِ لديْنَا، الأيتامُ في الدارِ المجاورةِ. أهلُه، وأصدقاؤُه من كلِّ الأعمارِ، والطبقاتِ.

يُعطي إحساساً بالشبابِ، والحيويةِ. معلوماتُه غزيرةٌ في كافةِ المجالاتِ.

من عائلةٍ عريقةٍ ثريةٍ . عاصَرَ أحداثاً كثيرةً؛ بفضلِ عمرِه، تلقَّى تعلَيمه في" فيكتوريا كولج" ملْتقَى الصفوةِ، وتعارفَ على عظماءٍ من دولٍ مختلفةٍ درسُوا معَهُ، تلقَّى تعلُيمه العالِي في مدرسةِ البوليس كما كانَ يُطلقُ على "كليةُ الشرطةِ" قديماً. تدرَّجَ ف رُتبِ الشرطةِ بسرعةٍ؛ لالتزامِه ومهارتِه. تزوجَ، ورُزقَ بابنةٍ وولديْنِ. عاشَ حياةً سعيدةً تتخللُها بعضُ المنغصاتِ المعتادةِ في الحياةِ. كانَ مرِحاَ متفتحَ الذِّهنِ يحلُّ الأمورَ بحكمةٍ، وفُكاهَةٍ، وصبرٍ. فمرتِ الحياةً كما يرغبُها، ويريدُها.
يتقنُ عدةَ لغاتٍ، شُغِفَ بالقراءةِ في مجالاتٍ كثيرةٍ، وزارَ معظمَ بلدانِ العالمِ؛ لأنَّ نفسَه توَّاقةٌ دائماً للحياةِ، والحركةِ.

تقاعدَ في سنِّ الأربعينَ؛ ليتولَّى تجارةَ أسرتِهِ كميراثٍ عائليٍّ، إنها تجارةٌ قد رسَّخَها الجدودُ، ويجنِي ثمارَها الأبناءُ. وإن لمْ يجعلْها تشغلُ حيزاً كبيراً من حياتِهِ الصاخبةِ. فتمتَّعَ بالعملِ، وتمتعَ بالحياةِ.
يحادِثُنا فيذكرُ شخصياتٍ مشهورةٍ بكلِّ بساطةٍ، ويحكِي تفاصيلَ دقيقةً في حياتِهم وعندمَا تسألُهُ كيفَ عرفَها؟ يقولُ :

- آه. إن فلاناً كانَ زميلاً لِي فِي" فيكتوريا كولج".

(٧٩)

أو تعرفتُ بفلانٍ في حفلِ خريجِي" فيكتوريا كولج "القدامَى السنوي.
هكذَا ببساطةٍ يتحدثُ عنْ شخصياتٍ اهتزَ لها التاريخُ.

يحبُّ الغناءَ، وإلقاءَ النِّكَاتِ بالعاميَّةِ، والفصحى، ويعطينا الكثيرَ من الألغازِ والأحاجِي، ويتركُنا حائرينَ في حلِّها، ويتعجبُ من تعثرِنَا هذَا، ثمَّ يلقِي لنَا بالحلِّ سهلاً جِداً، وإن تاهَ عن تفكيرِنا.

ويُرضي عبوسَنا عند عجزنَا عن الحلِّ بتوزيعِ الحلوَى، والشكولاتة التي لا تخلوا غرفَتَهُ منْها أبداً.

لم يعكرْ صفوَ حياتهِ إلا موتُ زوجتِه، وتلاهَا ولديْه في حادثٍ، وكان عمرُه يقاربُ السبعينَ . أقعدَ الحزنُ جسدَه، وكانَ يحكِي وعينُه تدمعُ: أقسى ما في الحياةِ أن ترَى فلذةَ كبدِكَ ميتاً، وتقومُ بمواراتهِ في الثَّرى، ويشدُّكَ الناسُ؛ لتذهبَ، وتتركَه وحدَهُ تحتَ التراب، تتمنَّى أن يتركوكَ تنزلُ معه تحتضنُهُ، وتدعوَ اللهَ أن يرسلَ ملكَ الموْتِ؛ ليقبضَ روحَكَ في هذه اللحظةِ؛ لترتاحَ من لهيبِ أشواكٍ تُدمِي قلبَك، وعقلَكَ، وروحَكَ. يا للهُ! كمْ أحسستُ أنَّ روحِي ستصعدُ لبارئِها في هذهِ الأوقاتِ الصعبةِ، وكادَ عقلِي يجنُّ من الفقدِ والوحشةِ، ولكنْ الحمدُ للهِ على تداركِه لِي بالربطِ على قلبِي بالصبرِ.

ما كنتُ أقولُ سوى: يا ربِّ! يا ربِّ! فأنعمَ عليَّ بنعمةِ الصبرِ، والاحتسابِ عندَ اللهِ.

ومرتْ بي الشهورُ ولا أدرى ما بي حتى أفقتُ على عللٍ ملئتْ جسدِي، وأصابنِي شللٌ لم أتحملْهُ، فعزمتُ أن أقاومَه حتى استطعْتُ - بعدَ سنتينِ- أن أتحركَ، وإن كانتْ حركاتٌ بطيئةٌ ثقيلةٌ.

وكادتْ ابنتِي أن تتركَ الدنيا لأجلِي بعدَ فقدِ أخويْها؛ فتفانتْ في رعايتي، وخدمتي، وتركتْ زوجَها الذي يعملُ كمستشارٍ لأحدِ الملوكِ العربِ، تركتْهُ في بلدٍ غريبٍ ؛لتعتنيَ بِي فأصبحتْ حياتُه صعبةً بدونِها .

هذَا الرجلُ الخلوقُ الذي كانَ ومازالَ نعمَ الابنُ لي، ونعمَ الزوجُ لابنتي، صبرَ شهوراً طويلةً أثناءَ عنايتِها بِي، وتمريضِي حتَّى ارتبكتْ حياتُه بدونِها.

وعندمَا أفقتُ مما بِي، ألححْتُ عليها أنْ تعودَ لزوجِهَا الذي سمعتُ من معارِفِي أنَّهُ يفكرُ في الاستقالة؛ ليلحقَ بهَا هُنَا.

أفهمتُها أنِّى فقدتُ أخويْها، وأريدُ أن أراها سعيدةً حتى لا يموتَ ما تبقَّى لي من قلبٍ وحياةٍ؛ فلتعدْ لزوجِها؛ فهو وحيدٌ بعد زواجِ أولادِهم وسفرِهم لبلدانٍ مختلفةٍ.

ورفضتُ فكرةَ أن يأتيَ رفيقٌ، أو ممرِّضٌ ؛ ليقيم معي، لا أحبُّ أن أكونَ حبيساً هكذَا في البيتِ، لا أرَى إلَّا شخصاً، أو شخصينِ طوالَ اليومِ.

سأختنقُ حتماً. سأقيمُ في دارِ رعايةٍ تكفُلُ لي الرعايةَ الطبيةَ، وكذلكَ أرى أشكالاً مختلفةً من البشرِ ؛ فأنا لا أستطيعُ أن أعيشَ في أربعِ جدرانٍ، معزولاً عن الحياةِ والناسِ.

وأخبرتها:

- حتَّى وإن كنتِ أنتِ وزوجُك معي لنْ أرتاحَ بهذهِ العزلةِ، وبتحطيمِ عملِ زوجِكِ. لمَ تهدمِين نجاحَكِ، وزوجَك، وتجعلينَهُ مضطراً أن يتركَ عملاً ناجحاً يحبُّهُ؟

(٨٠)

وظلِلتُ شهراً أُقنعُها حتى أنَي مثلتُ دورَ الغاضبِ؛ لتضطرَ للسفرِ إليهِ بعد ِأن ترتِّبَ أقامتِي هُنا.

وها هيَ معِي يومياً عدةَ ساعاتٍ تحدثُني، وتراني، وأرَاها عبرَ تكنولوجيا " الأيفون" و"الأيباد " وكلِّ هذهِ الأشياءِ التِي أتمتعُ بتعلمِ استخدَامِها.

وترسلُ لى دائمًا معَ المسافرينَ، أو البريدِ أفضلَ الأطعمةِ، والحلوى، وأحدثَ الكتبِ، وكلَّ الدورياتِ، وأجملَ الموسيقى العالميةِ.

أصعبُ شيءٍ عليَّ عجزِي عنِ الحركةِ، وتلقِّى المساعدةِ في أغلبِ شؤونِي.

وأجملُ شيءٍ أنَّ حياتِي مليئةٌ بالناسِ وبقلوبٍ مُحبةٍ.

أشعُرُ أن دورِي في الحياةِ لمْ ينتهِ. أهتمُّ بأشياءٍ عديدةٍ، وأجدُ من يهتمُ بى، ويتعلمُ من خبرتِي؛ حتى يَضحكَ، ويتمتعَ بحكاياتِي، ولا تنسى صوتِي الذهبِيَّ الجميلَ الذي أُغنِّى بهِ أحلَى الأغاني القديمةِ، والحديثةِ.

هكذَا أوجزَ سنواتِ عمرهِ المديدةَ.

كنا نلتقي كمجموعةِ أصدقاءٍ، ورفاقٍ ما بعدَ العصرِ اعتدْنَا على هذَا اللقاءِ، ففيهِ نناقشُ- أيضا- أمورَ أولادِنا في دارِ الأيتامِ. فلقدْ أصبحَ لحياتِنا هدفٌ أن نرعَى النبتَ الجديدَ. وتشابهْنَا -رُغمَ فارقِ العُمرِ بينَنَا- في الفقدِ، والوحدةِ والنسيانِ.

إجتمعنَا -نحن الكبارَ المنسيينَ- لنرممَ جراحَ نفوسِنَا بترميمِ جراحِ يتامَى منبوذينَ. نعيشُ الطفولةَ، والصبا فيهمْ، ونعطيهمُ الخبرةَ، والتجربةَ، والحبَّ. هكذَا عادَ كلُّ فردٍ منَّا للحياةِ رُغم أنفِ العجزِ والهجرِ ..جعلنَا لنا هدفاً : أن نعطيَ .وهنا كلُّ عصرٍ في الحديقةِ نتناقشُ فيمَا قدْ يستجِدُّ من أحداثَ .

حيثُ يخرجُ عم "محمد" من غرفتِهِ على كرسيِّهِ المتحركِ ؛ ليتشمسَ- كما يقولُ- فنلتقِي في الحديقةِ، وننعمُ بحكاياتِه، وطُرَفِهِ المتجددةِ التي لا تنفذُ أبداً.

هو حاضرُ الذهنِ يتحدثُ بحماسةٍ، وقوةٍ، وبصوتٍ عالٍ- بسبب ضعفِ سمعِهِ - وتلمعُ عيناهُ الزرقاءُ الصافيةُ. مهمَا كانَ مجالُ الحديثِ تراهُ مُطَّلِعاً على جوانبَ كافةٍ منهُ، ويناقشُ، ويجادلُ وينتقدُ ويفندُ ويسردُ معلوماتٍ دقيقةٍ، وإذَا احتدَّ النقاشُ أنهاهُ بطُرْفَةٍ، أو أغنيةٍ مَا. ويقولُ لنا:- مهما اختلفتْ آراءُ الأصدقاءِ لا يجبُ أبداً أن يكونَ هذَا سبباً للخلافِ، أو الشقاقِ بينَهم، نحنُ نختلفُ في الآراءِ على أمورٍ متغيرةٍ فلتظلُّ قلوبُنا ثابتةً على المحبةِ، والصداقةِ، فهي الأهمُ، و الأبقى.

باختصارٍ شديدٍ، عم " محمد " أسرّ قلوبَنا . أحببنَاه بشدةٍ كمَا لوْ كانَ أخاً، وابناً، وأباً، وبطلاً خارقاً يأسرُ قلوبَ الصبايا.

(٨١)

ولكنْ، منِ الَّتِي أسرتْ قلبَ عم " محمد "؟؟

"نعمـة"، هي مـنْ خطفـتْ قلبَـه حتى وجـدناهُ بعـدَ عـامينِ مـن معرفتِهِمَـا يطلبُ منْهَا الزواجَ!!!

كانَ هـذا مصـدرَ فرحـةٍ، ودهشـةٍ في نفسِ الوقـتِ، وخجِلـتْ " نعمـةُ" مِنْ هذا رُغمَ ظهورِ مشاعرِها الواضحةِ للجميعِ بحبها لهُ. ولكن من منظورُها كيفَ؟ وفى هذا العمر؟!

- ماذا سيقولُ الناسُ؟ ماذا سيقولُ أولادِي، وابنتُك؟؟

قالَ لهَا:

- هل تُحبينِي؟ وكانت أجابتُها واضحةً.

فقالَ لها:

- هـذا هـو السـلاحُ الـذّي سـأحاربُ بـه الـدنيا، والنـاسِ، إنـهُ حـبٌ بـدونِ أغراضٍ دنيويةٍ، أو دونيةٍ

كحبِّ أيامِ الطفولةِ، حبٌّ بريءُ، عفويٌّ، بهِ اللهفةُ، والأنسُ، والانشراحُ، عندَ تلاقِي العيونِ، والراحةِ في رؤيةِ السعادةِ في القلوبِ، والمشاركةِ في كلِّ الأمورِ الحبيبةِ المفضلةِ.

بـداخلِ كـلٍّ منّـا - مهمـا كبُرَ- طفـلٌ يحتـاجُ للعنايـةِ والحـبِّ والاهتمـامِ.
هكذا حبُّ عم "محمد " و "نعمة" .
أنظرُ إليهمْ فأجدُ براءةً وسعادَةً في العيونِ والحركاتِ، سعادةٌ تتجلى حتى فى الصمتِ بينهم . كأنَّهمْ طفلانِ مفعمانِ بالأملِ والسعادةِ.
وفوجئْنَا بهِ يحضِرُ محامياً، ويخبرُنا أنه اتفقَ معهُ أن يكتبَ أملاكَه كلَّها لابنتـهِ، ويخصـصُ جـزءَ الهبـةِ الشـرعيةِ لنعمـةَ، وأن ابنتَـه موافقـةٌ على ذلكَ، ولكنْ، ليس لهمَا أيُّ تصرفٍ في الأملاكِ إلا بعدَ وفاتِـه، وهـو حـرٌّ التصـرفِ فيهَـا طُـوالَ حياتِـه يتمتـعُ بهـا، وطلـبَ مـن نعمـةَ أن تكتـبَ كـلَّ أملاكِها لأولادِها بنفسِ الشروطِ.
وقال لنا:
- علمتْني الحياةُ أن لا أثقُ- تماماً- في تغيُّرِ النفسِ البشريةِ؛ فالمؤمنُ كيِّسٌ فطنٌ، فقدْ يغضبُ الابنُ، أو الابنةُ، ويخاصمُ الأمَ، أوِ الأبَ، وساعتَها قدْ لا نجدُ معينٌ ماديٌّ، أو معنويٌّ. فلْتبقى لنا ثرواتُنا تُعيلُنا، وتُصرفُ علينا حتى آخـرَ يـومٍ في عمرِنـا لنضـمنَ حيـاةً كريمـةً. وأيضـاً ضـمانُ ألا يلعـبَ شيطانُ الشكِّ في عقولِ أبنائِنا، ويظنُّ أنَّ ما نقومُ بهِ يحملُ أيَّ ذرةِ طمعٍ في ثروةِ أيٍّ منَّا كثُرت أو قلَّتْ .
إذا أنهينـا هـذهِ الجوانـبَ الماديـةَ صـدقيني بعـدَها أيّ شيءٍ سيكونُ سـهلاً.
ولاقيْنا رغمَ ذلكَ مقاومةً شديدةً من "نعمة" فهي خجلةٌ من أبنائِها، وتولَّى

عـم "محمد" هـذا الأمـرَ أيضـاً؛ فلقـدْ كـانَ صـديقًا لأبنائِهـا تعـَّرفَ علـيهمْ في زياراتِهم لهَا.

واستطاعَ أن يأخذَ موافقتَهُمْ قائلاً :

- نحنُ نريدُ الصحبةَ، والأُنسَ ببعضِنا؛ فلا طمعَ لديْنا في حياةٍ زوجيةٍ في عمرِنا هذَا، وصحتِنا التي تتلاشَى، أريدُها لتكونَ زوجتِي في الجنةِ .

لقد التقطَ هذا الرجلُ الأريبُ ما كانَ ينغِّصُ على "نعمة" عيْشهَا، وخوفَها أن يرافقَها زوجُها السابق "سامي " في الجنةِ كما كانتْ تخشَى.

(٨٢)

بعدمَا عقدَ المأذونُ القرانَ. قالَ "لنعمةَ ":

- أعدُكِ **أن أطوفَ** بكِ الجنةَ كلَّها؛ فأنا لا صحةَ لي الآنَ حتى أطوفَ هذهِ الغرفةِ بكرسيِّ المتحركِ.

في الجنةِ سأعودُ لعمرِ الثلاثينَ، وسترينَ ماذَا سأفعلُ عندهَا.

هذا الرجلُ كتلةٌ من المرحِ، والتفاؤلِ، والسعادةِ. تشعُّ منهُ الفرحةُ؛ لتغمرَ كلَّ منْ يرَاهُ ويسمعُه.

الرجولةُ مجسدةٌ. لا يسخرُ ساخرٌ غافلٌ فالرجولةُ ليستْ بالشبابِ، والعضلاتِ، .بلْ هي قوةُ موقفٍ، ويدٍ تسندُ، وقلبٌ يحتوى، ويتفهَّمُ، وإحساسٌ بالمسؤوليةِ والاهتمامِ. هيَ راحةٌ نفسيةٌ تجدُها لديْه في كلامِهِ، وصمتهِ وحكمتهِ.

وهذا ما وجدتْه "نعمة " فِي عم "محمد" وما لم تجدْه في زوجِها منذُ أن كانَ شابًّا حتى تفرقِا في الكهولةِ.

فقررتْ أن ترتبطَ بهِ لعلها تنهلُ من الاطمئنانِ، والسعادةِ ما لمْ تنلْه من قبلُ.

واليومَ نحتفلُ بمرورِ عامينِ على زواجهمْ؛ لذا ترَانا نعملُ بكلِّ جهدٍ، وفرحةٍ؛ لننهيَ كلَّ شيءٍ، ولنحتفلَ مبكراً.

وسطَ كلِّ هذهِ الحياةِ، هنا، وهذهِ الحكاياتِ أسائل نفسِي:

- حزينةٌ؟ لا أدرِي.
سعيدةٌ؟
لا توجدُ سعادةٌ كاملةٌ، أو حزنٌ مطلقٌ، هناكَ مزيجٌ من الاثنينِ فى كلِّ حياةٍ، وحكايتِها، وبمقدارِ يقينِك، وإيمانِك ترجحُ كِفة أيٍّ منهمَا.
وعلينَا أن نعرفَ، وأن ندركَ أنَّه مهمَا أذلنا الحزنُ فهناكَ شعاعٌ من سعادةٍ قد يغيبُ عن أعينِنا، لكنه موجودٌ. فليتَنا فِي وسطِ الحزنِ نرَاه، ونتيقنُ من رحمةِ اللهِ، وأنه قد كتبَ لنا رحمةً، وراحةً فيمَا نظنُه مصيبةً، أو حزناً أو ابتلاءً ((وعسى أنْ تكرهُوا شيئاً وهوَ خيرٌ لكمْ)).

أقبضتَ على سعادتِك في يومٍ، وأدركتَ لحظتَها كمْ أنتَ سعيدٌ؟ كلنًّا في غفلةٍ، لا ندركُ أوقاتَ سعادتِنا إلا بعدمَا تمضى، ونجترُّها بعد أن تُغَيِّبها عنا الأيامُ والسنون . ونقولُ: كانت أياماً.
أنا قبضتُّ على السعادةِ في أوقاتٍ ومراتٍ عديدةٍ، وتمتعتُ بها حتى الثُّمالةِ.
رتبتُها بحرصٍ، وحفظْتُها في عقلي وقلبي.
حفرتُها في ذاكرتي ولكنَّني - قبلها - عشتُها، وأدركتُها في وقتِها.
كمَا أحبُّ، وأشُمُّ رائحةَ المطرِ، أو رائحةَ زهرةٍ فواحةٍ.

يوماً استيقظتُ على ضحكاتِ بناتي، وتأملتُهُن في مزاحهِن، وحكايتِهن، وقلتُ: ما أجمل هذا الوقت! ما أجملها من سعادة أن أراهم وأسمعهم هكذا!

واليومَ أقبضُ على سعادةٍ أخرى أتمتعُ بلحظاتِها، وأكنزُها ليفوحَ عطرُها إن ضاقَ صدري يوماً .

عم "محمد" واحتواؤه العطوفُ "لنعمةَ"، وابتسامةُ "نعمة " وفرحتُها بقلبٍ يتفهَّمُها ويحتويها بعد طولِ عذابٍ ومشقةٍ.

(٨٣)

قلبٌ قد رمَّمَ ما تساقطَ، وتكسرَ، وتناثرَ من نفسِها، وروحِها.
سأحتفظُ بمثْلِ هذهِ الأوقاتِ بعقلي، وقلبي، وعندمَا يرمي الحزنُ شباكَه حوْلي أحاربُه وأُقصْقصُ أحبالَه بهذهِ السعاداتِ .
وأخذت ركناً من الجلسةِ أراقبُ وأفكرُ، وأتذكرُ.
اشتعلَ – يوماً - غيظُ مدام "حسناء" من صمتِي، وانطوائِي؛ فقالت :
- سلوان!، نحنُ نتحدثُ وأنت صامتةٌ دائماً، بما تفكرينَ الآن؟
أجبتُها بالفكرةِ التي كانتْ بذهنِي قبلَ حديثِها مباشرةً :
- أتدرينَ أنِّي أرَى أن كلاًّ منا قد عادتْ طفلةً، أو صبيةً تلهُو، وتعيشُ عمراً جديداً.
أراقبُ جمْعَنا هذا، وأسمعُ الضحكاتِ والطُّرفَ .
هذه الوجوه الضاحكةُ والعيونُ الفرحةُ المشاكسةُ الخجولةُ ألا تشبهُ صُحبةَ فتياتٍ خرجنَ من كلِّ مسؤوليةٍ، وعشْنَ سعادةَ التجمُّع، والانطلاقِ والثرثرةِ.
هذهِ أوقاتٌ سعيدةٌ أقبضُ عليْها وأتمتَّعُ بهَا، وأحفظُها مع أخواتِها في عقلِي، وقلبِي ؛لذا أنا صامتةٌ حتى لا تفوتَني لحظاتُ الفرحِ، وأتمتَّعُ بها.
لا شبحَ للحزنِ في صحبتِنا هذهِ.
اختلفنا في بداياتِنا وتشابهْنا قربَ النهايةِ.

ألا ليْتَ من رموْنا هنا أو من اضطرونا، أن نأتيَ يدرِكُون أن كلَّ ما نحتاجُه في هذا العمرِ: الأنسَ، والصحبةَ، والاهتمامَ، وقلوباً تحنو بلا رياءٍ علينا في نهاياتِ العمر.

هذه الصحبةُ هي السلوى، والسلوانُ إن وجدتموها، لا تُفرطوا فيها؛ فهي النجاةُ من نهاياتٍ محزنةٍ، وهى النجاةُ بعد الموتِ بدعواتٍ من القلبِ تصلِّ لنَا هناك.

أفزعتْني جملٌ يقالُ عنها: أنها من أغاني قبائلِ البوشمان:

- "يوم أن نموتَ سيمحُو النسيمُ الرقيقُ آثارَ أقدامِنا على الرمالِ، بعدمَا يفنَى النسيمُ، تُرى منْ يخبُر الأبديةَ أننا مشيْنا هنا مرةً في فجرِ الزمانِ؟"

أدركُ- الآنَ- أنَّ قلوبَ الأحبةِ ستخبرُ البشريةَ للأبدِ أنى كنتُ - يوماً -هنا.

فسألتني بطة :

- هل ندمْتِ على ما قدمْتهِ في حياتِك لأبنائِك؟

أجبتُها :

- لو عادَ بي الزمانُ، لفعلتُ كلَّ ما أستطيعُهُ من أجلِهمْ، ولكنِّي كنتُ سأقللُ من آمالي، وعشمي فيمَا سيقدمونَه لي في كبري، كنتُ سأمهِّدُ نفسِي أكثرَ من ذلكَ، حتى أدخرَ على قلبي كلَّ هذهِ الآلامِ .

كنتُ سأجعلُ لحياتِي هدفاً مجاوراً لمسؤوليةِ تربيةِ أبنائِي؛ حتى أجدَ سبباً لأظلَّ على قيدِ الحياةِ، وأصحوَ لهُ كلَّ صباحٍ.

مسؤوليةُ الأبناءِ، والعطاءُ لهمْ غريزةٌ في كلِّ إنسانٍ سليمِ النفسِ والعقلِ، لا خلافَ على ذلك.

(٨٤)

فيضُ حلاوةٍ، ولذةُ هذا العطاءِ؛ فالنفسُ السويةُ لا تملكُ إلاَّ ذلكَ.

لكن، وكما قلتُ: وماذا بعدُ؟

كلٌّ منهم سيذهبُ لطريقِ حياتِهِ، ونجاحاتِهِ، وهذا ما كرَّسْنَا له حياتَنا السابقةَ.

هل نموتُ بعدَها؟ الأعمارُ بيدِ اللّهِ.

نعملُ لغدِنا، نجعلُ لعطائِنا منافذَ أخرى حتى لا تصدأَ أرواحُنا، ونموتَ ونحنُ على قيدِ الحياةِ.

نتجنَّبُ بذلكَ الصدمةَ النفسيةَ التي قد تحدثُ عندما يكبرُونَ، ويستقلُّون وحتى لا نشعرَ أنَّنا بلا فائدة.

ولكلِّ منْ وهبَهُ اللّهُ مسؤوليةَ شيخٍ مسنٍّ، أو مسنةٍ .

رفقاً.: فإنَّ كسرَ القلوبِ لا يُجبرُ.

أفقتُ من ذكرياتِي، وتأملاتِي، وقدْ قاربَ الحفلُ على الانتهاءِ .

وقفتُ ولا أدري كيفَ أبدأ كلامي! لاحظني الجميعُ.

ضحِكَ عم "محمد " قائلاً :

- يااااه..سلوان تريدُ أن تتحدثُ! سينطقُ أبو الهولِ أخيرا!

ضحكتْ خجلاً وأخبرتُهُ :

- تدري أني أستمعُ أكثرَ مما أتحدثُ، ولكنِّي تحدثتُ بطريقةٍ أخرى، وكانَ قلمِي هو لسانِي .

انتظرتُ هذا الاحتفالِ؛ لأعلنَ لكمْ مفاجأةً.

وأخرجتُ من حقيبةٍ ظلِلتُ أحتضنُها طوالَ جِلستِي معهمْ، أخرجتُ كتاباً وقد انهمرتْ عيناي بالدموعِ، وغلبتُ صمتِي المعتادَ، وأجبرتُ لسانِي أن يتحدثَ :

- هذهِ آخرُ بروفة لكتابِي، الذي يحكِي حكايتِي، وحكايات البعضِ منكمْ، هذا هوَ حديثِي يا عم "محمد" .

تقافزَ الجميعُ، والتفوا حولي، وانهالتِ الأسئلةُ، والهتافاتُ:

- حكايتِي هنا؟ تحدثتِ عني؟ أينَ اسمي، وحكايتي؟ يااااه يا سلوان! كتابُكِ هذا سيكونُ لنا حياةً بعدمَا تنتهي الحياةُ تركتُ بيدِهم نسخاً من بروفة الكتابِ، وتحدثتُ لهمْ وإنْ كانَ صوتي داخلياً:

كتبتُ؛ لأحيا.

(٨٥)

أفكرُ، ماذا سيكونُ حالنا بعد موتِنا؟؟ ألنْ يعودَ لنا ذكْر؟؟ ألنْ نترك أثراً في هذه الحياةِ الدنيا؟

أرغبُ أن يتذكرَني أحدُهم بالخيرِ، ويدعوَ لي حتى بعد مرورِ السنين والسنين؛ لهذا أكتبُ كي أحيَا في القلوبِ والعقولِ.

ربَّمَا حنَّ قلبُ ابنٍ، أو ابنةٍ فيعودَ لصوابِهِ.

فيرحمُ أماً، أو أباً أعجزَهما الكبرُ، وتقطعتْ بهم السبلُ.

فتُكتَبُ لي حسنةٌ، أو تُردُّ لي في قبرِي دعوةٌ لعلهَا تكونُ المنجيةَ ..

وكتابِي بينَ الأيدي، يا لها من سعادة أتلذذُ بها حدَّ الثمالةِ ..

ومازال البيت يحفل بمرايا كثيرة تريد أن تريني المزيد.

***

- تمت -

يافي
للنشر والتوزيع

حروف من نور

١٠ برج الاشراف شارع الهداية المريوطية فيصل الجيزة

"جمهورية مصر العربية"

الايميل yavinour@gmail.com

ت/ ٠١٠٠٨٢٨٩٦٦٧ (٠٠٢)